

مفهوم العقلية : نظاريس وتحوم

الدكتور علي أسعد وطفة

مجلة التعریب : مجلة دورية نصف سنوية محكمة

تصدر عن المركز العربي للتعریب والترجمة والتألیف والنشر بدمشق

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

العدد 22 ، كانون أول/ديسمبر 2001 صص 197-238.



التحریر

مجلة نصف سنوية

المدير المسؤول:

الأستاذ الدكتور زيد العساف

مدير المركز العربي للتعریف والترجمة والتالیف والنشر بدمشق

رئيس التحرير:

الأستاذ الدكتور محمود السيد

هيئة التحرير:

الأستاذ الدكتور مفید جو خدار

الأستاذ الدكتور دفع الله عبد الله الترابي

الأستاذ الدكتور محمد حلمي هليل

الأستاذ شحادة الخوري

الأستاذ الدكتور محمد مكي الحسني

الأستاذ الدكتور عدنان الحموي

الأستاذ الدكتور عبد اللطيف عبد

الأستاذ الدكتور عدنان سومان

مفهوم العقلية: تضاريس وتخوم

أ.د. علي أسعد وطفة

كلية التربية – جامعة الكويت

يقول آفين توفلر في كتابه المعروف صدمة المستقبل على البنية المعقّدة لمفهوم العقلية "إن كل شخص يحمل داخل رأسه نموذجاً ذهنياً للعالم، أي تصوراً ذاتياً للعالم الخارجي. هذا النموذج يتكون من عشرات فوق عشرات من ألف الصور⁽¹⁾". وفي هذه الصورة البدعية التي يقدمها توفلر لمفهوم العقلية يتضح هذا العمق الكوني المركب لمفهوم الذهنية وهذه الصعوبة المنهجية التي يترتب على الباحث أن يتتكب ثمارها في البحث عن آلاف من طبقات الصور الذهنية التي يشتمل عليها مفهوم العقلية.

وتأسساً على هذه الصورة التي يقدمها توفلر يجب الاعتراف ومنذ البداية أن مفهوم العقلية Mentalité من المفاهيم التي تزداد غموضاً كلما اشتد المرء في طلبها، وتزداد صورتها تعقيداً كلما ألحَّ الباحث على التأمل في تضاريسها. إذ يشكل هذا المفهوم واحداً من المفاهيم الإشكالية التي تتدخل بصورة معقّدة مع منظومة من المفاهيم المركبة ولا سيما هذه التي تثير الجدل الفكري منذ عهود بعيدة المدى في تاريخ العلوم الإنسانية⁽²⁾.

ويعد مفهوم العقلية من المفاهيم المركزية في مختلف العلوم الاجتماعية والآداب والإنسانية، ولا سيما هذه التي تفرض نفسها في مختلف أنماط التفكير والنشاطات المعرفية، ويتجلى هذا في توافر استخدام هذا المفهوم بصورة ملحوظة في مختلف الحقول المعرفية ولا سيما

⁽¹⁾ آفين توفلر: صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد علي ناصيف، الطبعة الثانية نهضة مصر، القاهرة، 1990، ص 160.

⁽²⁾ Regardez: Hervé Martin, Mentalités médiéval X1-XV, Nouvelles Clio. P.U.F., Paris, 1996.

الإنسانية منها. ويضاف إلى ذلك كله أن هذا المفهوم شائع الاستخدام في لغة العامة من الناس في مختلف الثقافات الإنسانية، وهذا من شأنه أيضاً أن يضاعف من تضاريس هذه الإشكالية المعرفية التي يطرحها هذا المفهوم.

ومن يتأمل بصورة علمية أطياف الصعوبات التي تحيط بمفهوم العقلية أن تعريف هذا المفهوم يتطلب من الباحث المهم تناول نقاوة علمية واسعة في مختلف مناهي الحقول المعرفية واتجاهاتها، وذلك من أجل تحديد تخوم المفهوم التي تتراوح بين عدداً في مجالات عدداً من علم النفس مروراً بالعلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية لتنتهي في مرامي الفلسفات الإنسانية المعاصرة.

ويلاحظ في هذا السياق أن هذا المفهوم ما زال يعاني من التشوش والغموض في الثقافات الغربية المعاصرة، رغم المحاولات العلمية الجادة التي توالت في تحريره من شروط الغموض التي تحيط به، سعياً إلى بناء هويته الخاصة، وترسيم حدوده مع مختلف المفاهيم التي تزاحمه وتتدخل معه بشبكة كبيرة من الإيماءات والدلائل والوظائف. وإذا كانت مسألة تحديد الهوية العلمية لمفهوم العقلية قد قطعت أشواطاً في الثقافة الغربية، فإن هذا المفهوم ما زال يعاني غموضاً أكبر بكثير في الثقافة العربية المعاصرة، وذلك على الرغم من الاستخدامات الكثيرة والتوصيفات المتواترة له في مختلف الأدباء الاجتماعيين والفكريين. وفي هذه النقطة العقدية يأخذ البحث في قضية العقلية أهمية متنامية تقتضيها متطلبات التنمية الفكرية لمختلف جوانب الحياة الفكرية في الثقافة العربية.

إشكالية الدراسة

يتواتر في كثير من الأعمال الفكرية الجارية أن يتجاهل الباحثون أهمية بعض المفاهيم التي يوظفونها في أعمالهم وأبحاثهم، وكثيراً ما تؤخذ المفاهيم التي يوظفونها على مبدأ البداهة، حيث تصبح آية محاولة للتعريف نوعاً من التشوش العلمي الذي يضرُ بهذه المفاهيم ويدفعها

إلى دائرة الغموض.

لقد درج بعض الباحثين العرب أن يوظفوا مفهوم العقلية على مبدأ البداهة والوضوح الذاتي، إذ كثيراً ما نقع على بحث أو دراسة أو كتاب يحمل عنوان العقلية دون أن يخصص الباحث أية مساحة من العمل، يحدد فيها حدود هذا المفهوم ويعرفه، هذا وإن تطرق بعضهم إلى تعريف هذا المفهوم، فإنه يأتي بصورة مقتضبة تضع القارئ في حيرة وارتباك، وهنا يتربى على القارئ نفسه أن يكون لنفسه تصوراً ذهنياً لهذا المفهوم قد يقترب من دلالته وقد يجانبه الصواب⁽³⁾.

يحدث للقارئ أن يقع في إرباك كبير عند قراءة بعض الدراسات والأبحاث العربية حول العقلية، ولا سيما عندما يفكر في دلالة هذا المفهوم وفي أبعاده، أو عندما يخطر بباله المقارنة الذهنية بين هذا المفهوم وبعض المفاهيم التي تناخمه مثل المقارنة بين: عقلية شعب ما وبين نفسيته، وبين العقلية والذهنية، وبين العقلية والعقل، وبين عقلية شعب وثقافته، وبين الأيديولوجيا والعقلية، وبين مفهوم الشخصية الأساسية والعقلية، وبين هوية شعب وعقليته، وبين سيكولوجية شعب وعقليته.

وفي غمرة هذا الإحساس بالحيرة غالباً ما يؤخذ القارئ بمشاعر المعاناة إزاء الغموض الذي يحيط بمفهوم العقلية إذ تضيع فرصة الوضوح العلمي من الباحثين فأفقدت أعمالهم كثيراً من تألقها وبهجتها.

واستجابة لأهمية هذه القضية وضرورة استجواب جوانبها المختلفة، بدأت رحلتنا في البحث عن دراسات وأبحاث حول مسألة العقلية والذهنية، وبدأتنا جهوداً علمية منظمة لتبديد الغموض الذي يحاصر هذا المفهوم. وبحثنا الحالي يمثل خلاصة جهود كبيرة كرست لتقديم

⁽³⁾ يقتضي المنهج الموضوعي تجنب الإشارة إلى المقالات والكتب العربية التي تناولت مسألة العقلية وتتجنب فيها الباحثون تعريف المفهوم.

إجابة منهجية وعلمية عن سق من الأسئلة العلمية التي يمكن لاجباتها أن تحدد هوية العقلية وتضاريسها وحدودها وهي:

- ما حدود المفهوم وأبعاده الفكرية؟
- ما أوجه التداخل التي يعاني منها مفهوم العقلية مع بعض المفاهيم المتاخمة مثل: الأيديولوجيا، والهوية، والشخصية، والعقل، والفلسفة؟
- ما العناصر والمكونات الأساسية التي ينطوي عليها هذا المفهوم؟

تعريف المفهوم

تنوع هوية مفهوم العقلية على تنويعات الاتجاهات الفكرية والت الثقافية للمفكرين والباحثين والدارسين. ويستجمع هذا التنوع المراحل التاريخية التي شهدتها تطور هذا المفهوم والمعايير الثقافية بين مختلف الثقافات العالمية. وعلى نغم هذا التنوع فإن هذا المفهوم يمتلك خصوصية علمية وثقافية تمنحه هويته الخاصة وعناصر وحدته التي نجدها في أصل التنويعات الثقافية التي تلفه من كل حدب وصوب. وهذا يعني أن هناك جذوة مشتركة للمفهوم تحضر في مختلف التصورات على مدى تنوعها. وهذا يعني إمكانية البحث عن الجذع المشترك للمفهوم في أنساق التنوع والتعدد والاختلاف الثقافي والفكري التي تحيط به.

ومن أجل البحث عن جوهر هذا المفهوم، والكشف عن هويته، يترتب علينا في هذا المقام أن نورد أهم التحديات والتعريفات والتوظيفات التي شهدتها هذا المفهوم، ومن ثم تحديد العناصر المشتركة التي توكلها مختلف التنويعات الفكرية.

شهد مفهوم العقلية ولادته في مطلع القرن العشرين على يد عالم الاجتماع المعروف ليفي برويل Levy - Bruhl Lucien (1857 - 1939) ولا سيما في كتابه: "الوظائف العقلية في المجتمعات الدنيا عام 1910. ⁽⁴⁾ Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures.

⁽⁴⁾ Levy Bruhl. *Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures*, Paris. 1910.

ثم في كتابه العقلية في البدائية عام 1992⁽⁵⁾ La mentalité Primitive.

ويعود الأصل المعجمي لكلمة العقلية Mentalité إلى الأصل اللاتيني mens و mentis وهي تعني نفس أو روح Esprit والعلقية بالمعنى الاشتراكي هي خاصة ما هو عقلي⁽⁶⁾.

وفي اللغة الجارية تعني الكلمة عقلية حالة نفسية تتكامل عفويًا مع منظومة قيم أخلاقية تظهر في نسق السلوك. من هذا المنطلق فإن العقلية بوصفها حالة روحية نفسية يمكنها أن تحدد هوية الجماعات والأفراد الذين يعرفون بطريقة تفكيرهم ويتمايزون بأنماط سلوكهم.

يعرف معجم لالاند العقلية بأنها "جمل الاستعدادات العقلية وعادات التفكير والاعتقادات الأساسية لفرد ما"⁽⁷⁾. ومفهوم العقلية كما يبين لالاند هو مصطلح يستخدمه بعض الكتاب للإشارة إلى الواقع أو الحالات الداخلية للفرد.

ويجد تعريف لالاند صدأه في معجم العلوم الاجتماعية لمادلين كراوتس Madeleine Grawitz الذي يعرف العقلية بأنها "طريقة الحكم والسلوك الخاصة بفرد أو جماعة ما، وهي وظيفة نفسية تمثلها منظومة من الاتجاهات والمسالك"⁽⁸⁾. وجاء في موسوعة لاروس الفرنسية بأن العقلية "منظومة من العادات والمواقف الفكرية والعقائد والسلوك الذي يميز جماعة ما، وهي طريقة في السلوك والتفكير"⁽⁹⁾.

وأوردت الموسوعة الفرنسية Universalis أن مفهوم العقلية يشتمل بالضرورة على المجال الانفعالي، ولا سيما المشاعر والعواطف والأحساس، وذلك بالدرجة نفسها التي يشتمل فيها على السجل العقلي الخالص. فكل مجتمع، ومن أجل استمراره، يبني منظومة من التصورات

⁽⁵⁾ Levy Bruhl. La mentalité Primitive, C.E.P.L. Paris. 1976.

⁽⁶⁾ J.Copin, Genèse de l'histoire des mentalités, Sciences Humaines, N4, Juin- Juillet, 1989- pp 12-6.

⁽⁷⁾ أثرية لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات، بيروت، 1996، ص

.786

⁽⁸⁾ Medeleine Grawitz, Lexiques des sciences sociales Dalloz, Paris, 1983.

⁽⁹⁾ Larousse, grand Larousse encyclopédique, 11 vol, Paris, 1960 – 1968.

عن الطبيعة والحياة وال العلاقات بين الإنسان والآلهة. وبالتالي فإن ما ينسجه الإنسان من تصورات يضرب جذوره في أعماق الوجودان الفردي والجماعي ويأخذ صورة العقلية أو الذهنية⁽¹⁰⁾.

ويميز قاموس لاروس (Larousse 1996) بين معينين لمفهوم العقلية، أولهما: أن العقلية منظومة العادات العقلية والعقائد والسلوكيات التي تعرف بها جماعة أو فرد. وآخرها أن العقلية هي أساليب التعرف والسلوك والتفكير عند شخص أو مجموعة. يؤكد معجم Hachelle بأنها طريقة التفكير وتصور الحقيقة ويشتمل منظومة العادات والعقائد الخاصة المشتركة للجماعة.

ومن أجل أن نستجمع عطاءات التعريفات السابقة في لوحة فكرية تتضمن بالوضوح يمكننا استعراض ما يورده جاك بول Jacques Paul في كتابه الكنيسة والثقافة في الغرب L'église et la culture en Occident حول مفهوم العقلية حيث يبين بول في هذا الكتاب أن المؤرخين يدرسون، تحت عنوان العقلية، مجموعة من الأحكام وال المسلمات المسبقة التي توجه المشاعر والتفكير والسلوك، والتي تسجل حضورها في الأقوال والأفعال، وتأخذ طابعاً مشتركاً بين مختلف أفراد الجماعة. وتأخذ هذه المسلمات والعادات والعناصر الثقافية الشعورية واللاشعورية نسيجاً متكاملاً يتميز بالثبات إزاء الحوادث والمفاجآت والمستجدات، وذلك لأنها تتจำกر كمفاهيم أولية مرئية. وبالتالي فإن البني الذهنية هي آخر ما يمكن أن يتعرض للنقد والتشكيك، ولا يكون ذلك إلا عندما يتعرض الوعي لصدمة كبيرة أو أزمة خانقة تؤدي إلى اهتزاز المشاعر والقيم الأولية الدفينية. فالعقلية تتطور بصورة بطئية متناثلة جداً عبر الزمن، وتتغير بصورة متدرجة آخذة مادها عبر الأجيال المتلاحقة حتى اللحظة التي تفقد فيها - بصورة مفاجئة أحياناً - كل التماส الذي تعرف به.

تبين الرؤية النقدية للتعريفات المعجمية أن هذه التعريفات تؤكد الروح الداخلية لحياة الفرد

⁽¹⁰⁾ Encyclopedia universalis, Paris, 1995.

أو الجماعة بما تتطوّي عليه هذه الروح من قيم واتجاهات وأفكار تشكّلت وتبلورت في الأفران الداخلية للثقافة. ومن الواضح أيضاً أن التعريفات التي استعرضناها تؤكّد بصورة صريحة أحياناً، وخفية أحياناً أخرى الجانب اللاشعوري لهذه الروح الداخلية التي تحرك الفرد وتحدد له أنماط حياته وتفكيره وردود فعله. إنها القوة الحيوية النابضة للوجود والعمل.

ولو حاولنا أن نحدد الجوانب الأكثر وضوحاً في هذه التعريفات لترتب علينا أن نميز في مفهوم العقلية هذه الجوانب:

- طريقة التفكير التي يعتمدها الفرد في تحليل معطيات الوجود.
- منظومة التصورات والمفاهيم والعقائد التي تشبع بها الفرد وتبلورت في أعماقه بصورة شعورية أو لاشعورية.
- آليات السلوك وأنماط الاستجابات الحياتية التي يعرف بها الفرد أو الجماعة.

وبنّي أن نميز في المستويات الثلاثة أن كل مستوى ينطوي على جانب شعوري وآخر لاشعوري. غالباً ما تكون الجوانب اللاشعورية أكثر أهمية من الجوانب الشعورية في بنية العقلية. ويجب علينا أيضاً لا نفصل بين هذه الجوانب الثلاثة بمعنى هذه العلاقة الدينامية بين تصورات الفرد وطريقة تفكيره وطبيعة سلوكه.

ومع أهمية الوضوح الذي قدمناه لتضاريس المفهوم فإن إزالة الغموض الذي ينطوي عليه المفهوم يحتاج إلى تحديد طبيعة العلاقة المتداخلة مع بعض المفاهيم المركزية التي تشكل هذا المفهوم وتتدخل معه.

حدود المفهوم وتخومه

يستحضر مفهوم العقلية، كما وضمنا سابقاً، مجموعة من التصورات والأفكار والسلوكيات التي يعرف بها فرد أو جماعة أو مجتمع محدد. ومن حيث المبدأ يمكن القول إن هذا المفهوم يتداخل مع عدد من المفاهيم المجاورة له في بعض المجالات الفكرية الأخرى. فعلى سبيل

التعريب العدد الثاني والعشرون . كانون الأول / ديسمبر 2001

المثال جرت العادة في الأنתרופولوجيا الأنكلوساكسونية، ولا سيما في المدرسة الثقافية التي يمثلها كل من مارغريت ميد M.Mead ورالف لينتون (Ralph Linton 1893 - 1953) وكرادينر (Kradiner)، على توظيف مفهوم الشخصية الأساسية Personnalité de Base والذى يقابل إلى حد كبير مفهوم العقلية. فمفهوم الشخصية الأساسية يتحدد بوصفه ثقافية مستتبطة خاصة بجماعة معينة أو مجتمع محدد (انظر رالف لينتون في كتابه الأصول الثقافية للشخصية ⁽¹¹⁾ fondement culturel de la personnalité).

أما ماكس فيبر (Max Weber 1864 - 1920) في كتابه *الأخلاق البروتستانتية والروح الرأسمالية* L'Ethique protestante et l'esprit du capitalisme، فإنه يسعى إلى تحديد النموذج المثالي "Type Idéal" للعقلية الرأسمالية⁽¹²⁾.

وتشهد الساحة السوسيولوجية اليوم عدداً كبيراً من الدراسات التي تبحث في تباين العقليات بين الجماعات والمجتمعات الإنسانية، وذلك انطلاقاً من مفاهيم متعددة مثل مفهوم خصائص الطبقة Habitus de classe وهو المفهوم الذي يوظفه بيير بورديو P.Bourdieu في كتابه النمط الاجتماعي Sociostyle أو كما يوظفه كاتلات B.Cathelat في كتابه نمط الحياة عند الفرنسيين . "Les style de vie des français"

أما في علم النفس فإن العادة تجري على استخدام مفاهيم مثل الاتجاهات والقيم كمفاهيم مكافئة لمفهوم العقلية، ويمكن أن نستحضر عنوان كتاب ستوزل (Jean Stoetzel 1910 - 1987) في كتابه "قيم الزمن الحاضر" Les valeurs des temps présents

وفي هذا السياق يشار بالبنان إلى أعمال إليكس ميشيلي Alex Mucchielli الذي يقترح اتجاهات متعددة في مجال العلوم الإنسانية حول مفهوم العقلية. حيث يعتقد أن مفهوم العقلية يلعب دوراً هاماً في داخل البنية الاجتماعية. ويحاول أن يقارب بين مفهومي العقلية

⁽¹¹⁾ Linton R. Le fondement culturel de la personnalité, Tra. Alyotard, DUMOND, Paris, 1959.

⁽¹²⁾ Weber Max, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme, Trd. de l'ALL, Presses – Poket, Coll. Agora, Paris, 1985.

والأيديولوجيا لأنهما يقدمان إطاراً لتفسير الواقع ويوثران في السلوك وفي تشكيل الهوية الثقافية لمجتمع ما⁽¹³⁾.

وفي هذا السياق يمكن الإشارة إلى عدد من المحاولات العلمية التي كرست لدراسة تكون العقليات وتشكلها في وسط المتغيرات الاجتماعية، وهذه المحاولات لا تأخذ سياقاً متكاملاً حيث تناوبها محاولات تجري في فروع إنسانية مختلفة مثل علم النفس والتحليل النفسي وعلم الاجتماع وغيرها⁽¹⁴⁾.

يقتضي تعريف مفهوم العقلية كأي مفهوم آخر تحديد مداراته تداخله مع المفاهيم المجانسة له. وهذا يعني تحديد أبعاد المفهوم وتخومه التي تفصله عن مجموعة من المفاهيم المجاورة. ومن المفاهيم الأساسية التي يجب الخوض فيها وفي مساراتها يمكن الإشارة إلى مفهوم العقل والثقافة والهوية والعقيدة والأيديولوجيا والشخصية.

بين العقل والعقلية

يشكل الفصل بين مفهومي العقل والعقلية مطلبًا منهجاً معرفياً يقتضيه التوظيف المتداخل للمفهومين في غالب الأحيان، حيث تضييع الحدود الفاصلة بين مفهومي العقل والعقلية عند كثير من المتفقين والباحثين، إذ غالباً ما يوظف أحدهما في مكان الآخر. ومن أجل التمييز يمكن الاستناد إلى منظومة من المقولات التي يمكنها أن تجعل بصورة واضحة بين المفهومين. ومن أجل الفصل بين المفهومين يتربّط علينا أن نعرف العقل في البداية.

جاء في المعجم الوسيط في تعريف العقل "أنه ما يقابل الغريزة التي لا اختيار لها، والعقل ما يكون به التفكير والاستدلال وتركيب التصورات والتصديقات وما به يتميز الحسن من القبيح والخير من الشر، والحق من الباطل". وجاء في لسان العرب عن العقل "العقل: الحجر والنهي، ضد الحمق والجمع عقول. العاقل هو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير

⁽¹³⁾ Mucchielli. A., *Les mentalités*, Que sais – je, P.U.F., Paris, 1984.

⁽¹⁴⁾ S.Betremieux, *Les mentalités populaires*, Sciences humaines, N4, Juin – Juillet, 1989, P20.

إذا جمعت قوائمه" وقيل "العقل من يحبس نفسه ويردها عن هواها (...) وأخذ من قوله قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع عن الكلام، وسمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي يحبسه".⁽¹⁵⁾

وتضمنت الموسوعة الفلسفية العربية تعريفاً للعقل قوامه: "العقل في اللغة العربية هو الربط والحجر والنهي منعاً للشروع والتسلب، فهو يعقل النفس وينفعها عن التصرف على مقتضى الطياع. وفي اللغات الأوروبية فإن مفردة "راسيو Ratio اللاتينية ولوغوس اليونانية مفردتان تدلان على العقل والعلم والقانون والنظام ولا سيما العد والحساب والفهم".⁽¹⁶⁾

ومن أجل مزيد من الوضوح يمكن القول إن مفهوم العقل يأخذ لفظة لوغوس logos في اللغة اليونانية، ويأخذ لفظة "راسيو Ratio" في اللاتينية، ولفظة "ریزون Raison" في الفرنسية ولفظة Vernunft باللغة الألمانية. وقد عرف ديكارت العقل بأنه الحس السليم أو الصواب Le bon sens وهذا يعني أن العقل يمثل موقفاً إنسانياً مستقلاً عن الاعتقادات والأساطير وعن النظارات الصوفية.⁽¹⁷⁾

ويلاحظ في هذا السياق أن مفهوم العقل يقابل مفهوم الانفعال والهوى والميل ويعارضه في الآن الواحد. وهذا يعني أن العقل يأخذ، بصورة عامة، حالة متكاملة من الوعي الذي يقوم على أساس التحليل والتركيب والتأمل والنقد المنهجي. وهذا يعني التحرر من تأثير العاطفة والهوى والعادة والتقليد، والاعتماد على مبدأ الرؤية الموضوعية للوجود، أي النظر إلى الواقع دون إضافات ذاتية عليه وبعيداً عن الميل والعواطف. وبعبارة أخرى النظر إلى الظواهر كما هي وكما تتبدي في مرآة الوعي الناقد.

وإذا كانت العقلية كما يعرفها فؤاد اسحق في كتابه الذهنية العربية "الحس اللاشعوري

⁽¹⁵⁾ أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، غ. ت.

⁽¹⁶⁾ معن زيادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، 1986، ص 596.

⁽¹⁷⁾ رجاء العتيري، في طبيعة العقل، سحر للنشر، ط1، تونس، 1999، ص 5.

الذي يثير الإحسان للتحرك والعمل بشكل عفوي، فإنها تختلف عن مفهوم العقل، إذ إن العقل ينشأ بالمعرفة ويتحكم بالأمور عن طريق التحليل والتعليق والبرهان⁽¹⁸⁾.

وبالاستناد إلى تعريف مفهوم العقل يبدو لنا أن العقلية ليست عقلاً خالصاً بل هي تركيب سيكولوجي متبلور يجمع بين معطيات العقل ومعطيات المعتقدات والميول والعواطف التي تشكلت في نسق التفاعل بين الكائن والوسط الذي يعيش فيه. وهذا يعني أن العقلية عقل يمتزج بمعطيات العاطفة والمعتقد، إنها مزيج سيكولوجي من الشعور والوعي (العقل) ومعطيات اللاشعور ممثلاً بحالات المعتقدات والقيم والميول التي تضرب وجودها في عمق الشخصية الإنسانية. وينبني على هذه الروية أن العقل يقوم على مماحكات نقدية موضوعية بينما العقلية هي حالة عقلية عاطفية عقائدية في آن واحد. وسلوك الإنسان غالباً ما يجري على مبدأ العقلية وليس على مبدأ العقل.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو هل تمارس العقلية وظيفة التفسير والتحليل؟ وبعبارة أخرى هل تشتراك العقلية مع العقل في تفسير الظواهر والكون؟

العقلية رؤية للكون ونظام للتفسير

يتدخل نظام المرجعيات الغامضة، الذي يشكل عقلية ما، بوصفه شبكة من الرموز (الشيفرات) والمعلومات، للتفسير الأشياء والظواهر والأحداث وفقاً لمنظومة الأحكام المسبقة التي تم اكتسابها. وبالتالي فإن نظام العقائد الذي يشكل عقلية الأفراد يتحرك كطاقة واحدة من الأحكام المسبقة والعقائد والمفاهيم التي بلغت درجة عالية من التبلور والاستقرار.

شبكة التحليل التي تعتمدها العقلية يمكنها أن تعيد بناء المعلومات وفقاً لاتجاه الذي يعبر عن نظام هذه العقلية وما ينتظر منها (من الشرير: هو شرير وعدواني مهما فعل وأبدى من سلوك آخر). تتجسد مظاهر تفسير المعلومات في الاختبارات الإسقاطية، فعندما يتم عرض

⁽¹⁸⁾ فؤاد أسحق الخوري: الذهنية العربية: العنف سيد الأحكام، دار الساقى، بيروت، 1993، ص 8.

صورة ما على أفراد ما فإن تفسير هذه الصورة سيتم بالاستناد إلى عناصر العقلية التي توجد في أصل عملية التفسير والتحليل. فمشهد البحر يوحي بالعطاء عند سكان السواحل أو صيادي الأسماك، ولكنه قد يرمز إلى الخطر عند أهل البداية أو سكان الصحراء، ومشهد شجرة قد يوحي بالربح لناجر الخشب بينما يوحي بالجمال للأديب أو شاعر. وهذا يعني تدخل الذهنية أو النظام المرجعي للأفراد في عملية تفسير الأشياء وإدراك وظائفها.

إن العقلية بوصفها نظاماً من المبادئ تتشكل تحت تأثير منظومة من المسلمات والبيهيات التي توجد في أصل تفسير جميع مظاهر الحياة. وهذا يعني أن العقلية تتطوي في ذاتها على رؤية للكون، وعلى نظام عقلي يأخذ طابعاً أيديولوجياً، ومتلك في ذاتها أيضاً تفسيراً للحقيقة والواقع، وهي في هذا السياق تلبي حاجات أصحابها فيما يتعلق بالفهم والمعرفة.

فعندما تشهد الساحة الاجتماعية حدثاً سياسياً أو اجتماعياً فإن الأفراد يفسرون هذه الأحداث بطريقة تتبادر بتبادر العقليات والذهنيات. فعندما يرى أصحاب الملكية في حدث ما اعتداء على الحرية فإن النقابات ترى في ذلك تطوراً في حقوق العمال. وبفضل العقلية وبفضل التفسير الذي يمكن أن تقدمه يمكن تحليل جميع الظواهر ودراستها. فالفرد يمتلك شبكة من المعلومات التي تتيح أن يقرأ التاريخ بما يناسبه.

فالذهنية بوصفها نظاماً قبل منطقى وغامضاً تؤثر بصورة مستمرة في عملية المحاكمة العقلية والفعل عند الفرد الذي يوضع في خدمة الأحكام التي تطلقها العقلية. وفي هذا الخصوص فإن الخطاب الموجه إلى الآخر يبدو كجهد لتبرير الأحكام التي تصدر عن العقلية وعقليتها. وهذا يعني عملية بناء عقلي وعقلاني واجتماعي للأفكار تكون سهلة بالنسبة إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى العقلية نفسها التي تنتهي إليها.

وعلى خلاف ذلك يمكننا أن نغلب الآخرين بمحاكمتنا ولكن لا يمكننا إقناعهم، وذلك لأن الآخر هنا لا ينتمي إلى الرؤية نفسها التي نمتلكها عن الكون وذلك في المستوى المنطقى النفسي (السيكولوجي).

وهناك تجارب مشهورة في هذا السياق حول طبيعة إدراك الصور لجماعات عرقية.

شبكة الترميز تصطفى عناصر دالة، وهي عناصر تحتوي بذاتها على إشارات ومحركات أكثر من عادية، فالذهنية تؤدي وظيفتها فعلياً كأيديولوجيا تجعل الكون إلى جانبين، أحدهما حسن والآخر قبيح.

وفي هذا المستوى يمكن القول أن العقلية تمارس دوراً وظيفياً في عملية تفسير مظاهر الكون وتحليل تجلياته. وهي في هذا المستوى تشتراك مع العقل في عملية التحليل. وكل منها، العقل والعقلية، شبكة من الرموز والفعاليات الذهنية التي تتميز بدرجة عالية من التجريد في حال الفعل العقلي وإلى درجة عالية من القيم والعقائد في حالة العقلية.

ويمكننا في هذا السياق أيضاً أن نميز بين عقليات مختلفة في نمط التفكير ومنهجياته ويتبدى هذا الاختلاف في داخل الأنظمة الفكرية والمذاهب الفلسفية والمناهج العلمية عبر تنوّع العصور والمدارس والحركات الفكرية.

جدل العلاقة بين العقلية والسلوك

"يؤكد عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي لويس ديمونت Louis Dumont في دراسته عن الهند أن شمَة بنية من الأفكار داخل عقول الهندوسيين تجعلهم يتعلمون على النحو الذي نراهم فيه"⁽¹⁹⁾. وهذا يتبدى أن هذه البنية الداخلية من الأفكار تمثل ما يمكن أن نسميه العقلية وهذا يعني أن العقلية تفرض نوعاً من السلوك يتواءم مع المضامين الأساسية لهذه العقلية.

وفي هذا الصدد يحضرنا المبدأ الفرنسي الذي يقول "Je fais comme je pense" أي أني أسلك وفقاً لما اعتقاد. وهذا يعني أيضاً أن السلوك يجري وفقاً لمبدأ الاعتقاد والمضامين الفكرية التي يشتمل عليها النظم الذهني الذي يوجه حياة الفرد وسلوكه.

⁽¹⁹⁾ Louis Dumont, Civilisation indienne et nous, Paris, 1975.

وإذا كان السلوك يتحدد على منوال العقلية بما تتطوّي عليه من قيم وعقائد وصور فإن أنماط السلوك السائدة في الجماعة والبيئة الخارجية تشكّل منطق العقلية، وذلك وفقاً لجدلية تأثير تتصف بالاستمرار والديمومة. فالبيئة الخارجية تمطرنا بالمنبهات وبموجات من الصور والضوء التي تقرّع حواسنا، وما أن نستوعب هذه الإشارات حتى نحولها من خلال عمليات لا تزال سراً غامضاً إلى رموز للحقيقة، إلى انتابعات وصور⁽²⁰⁾. وهذه الانتابعات والصور تشكّل المد الحيوي الذي يمد العقلية بنسخ وجودها.

وفي هذا المدى يؤكد جاك لakan (Lacan Jacques 1901 - 1981) أهمية المناخ اللغوي في عملية التشكّل الذهني والعقلي عند الإنسان. كما يؤكد لakan في هذا السياق أهمية الفعاليات الخفية الصامّة في بناء عقلية الفرد، ولا سيما عندما يكتشف الطفل عالم الرموز والإشارات. وهذا التشكّل الذهني يؤكد أن الإنسان يشكّل ذهنياً وأيديولوجياً تحت تأثير التبعية الفيزيولوجية حيث يتمثّل الفرد المعايير العائلية والاجتماعية تحت ضغط هذه التبعية البيولوجية في مختلف تجلّياتها⁽²¹⁾.

يرى دور كهaim (1858 - 1917) في هذا الصدد أن أفكارنا عن العالم مستمدّة من علاقتنا الاجتماعية، وهو يرى في مؤلفه التصنيف البدائي "أن تصنّيف الناس يعيد تصنّيف الأشياء" وبالتالي فإن العلاقات الاجتماعية تولد أنماطاً لإدراك العالم⁽²²⁾. وهذه الفكرة نجدها واضحة في الفكر الماركسي الذي يحدد أولوية البنية التحتية في إنتاج المفاهيم والصور وذلك على مبدأ أن مستوى تطور القوى المنتجة يحدد علاقات الإنتاج التي تتبلور في قيم ومفاهيم وقوانين وصور.

⁽²⁰⁾ آنلين توفلر، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد علي ناصيف، نهضة مصر، 1990، ص 169.

⁽²¹⁾ انظر: علي وطفة، البنية اللاشعورية للغة عند جاك لakan، مجلة الموقف الأنبي، عدد 303 تموز عام 1996.

⁽²²⁾ ميشال تومبسون وآخرون: نظرية الثقافة، ترجمة علي سيد الصاوي، عالم المعرفة، عدد 223، الكويت، 1997، ص 123.

تولد كل عقلية، بوصفها نظاماً من المبادئ، نسقاً من السلوكيات النموذجية، وفي مضمون هذه السلوكيات النموذجية نجد فعاليات مثل الشراء وطرائق الاستهلاك، واستخدام الأشياء وهذا ما يمكن أن نطلق عليه **نمط الحياة أو أسلوب الحياة، وأسلوب الحياة يعني في هذا المجال نتاجاً لعقلية محددة.**

ومن أجل الكشف عن أفق العلاقة بين السلوك والعقلية يمكن لنا تطوير هذه العلاقة في هذا النسق المجسد لنماذج سلوكية في دائرة الحياة المعيشة. يعتقد التكنوقراطيون على سبيل المثال بالأهمية المطلقة للعلم، ويؤمنون بالتقدم الذي يتم من خلال الجهد والمعرفة العلمية، ويستهلكون أقصى حد ممكن من الدوريات والمجلات العلمية، وهم شغوفون بقراءة الملاحظات والمقولات حول الاختراعات التكنولوجية، ويرغبون في أن يحاط أحدهم بالاختصاصيين في مختلف المجالات، ويرفضون كل ما لا يصب في دائرة الجد والجدية (الجدة العلمية)، وهم حساسون جداً في مستوى المشاعر والعواطف، إذ يبحثون عن المنتجات ذات المستويات العليا التي تتطوّي على قيمة تكنولوجيا عليا، ولهم حساسية كبيرة فيما يتعلق بالجدة التكنولوجية، ولديهم ميل كبير إلى الإحصاء والاختبارات المقارنة والنظريات العامة التقنية والسوسيولوجية. وحياتهم العائلية منظمة ومنسقة على نمط حياتهم المهنية التي تأخذ طابع النموذج. ومشترياتهم غالباً تعبّر وبصورة مباشرة عن نجاحاتهم وقدرتهم العالية على تنظيم صعودهم الاجتماعي⁽²³⁾. وفي هذا المثال صورة واضحة لما ينطوي عليه سلوك فئة اجتماعية تعرف بنمط ذهني أو عقلي محدد.

ومن المناسب في هذا المقام أن نورد نموذجاً آخر لعقلية أخرى، لطالما أشار إليه الباحثون في مجال علم الاجتماع وعلم النفس، وهذا النموذج هو عقلية الحذر وسلوك الحذر، أي عقلية الشك وسلوك الشكاك، أو عقلية الريبة وسلوك المرتاب.

⁽²³⁾ Alex Mucchiellie, *Les mentalités: compréhension et analyses*, Les Editions E.S.F. Paris, 1984, P 10.

تبغ عقلية الارتياب والحذر من اعتقاد قوامه أن الآخر يخدع ولا يمكن الثقة فيه ويجب الأنا نق بالآخر مهما يكن، فعلى سبيل المثال إذا شاء الرجل الحذر أن يرسل أحداً من معاونيه إلى السوق من أجل شراء بعض الحاجات فإنه يلاحقه بشخص آخر يطلب إليه أن يعطيه فكرة دقيقة عن كلفة الحاجات التي اشتراها الشخص الأول. وهذا الشخص عندما يحمل بعض النقود وهو في رحلة ما فإنه يقوم بإجراء حساباته على فترات قصيرة، وذلك ليتأكد من دقة حساباته، وهو عندما يريد الحصول على استحقاقاته من الآخرين فإنه يصطحب معه وثائق وشهادات قطعية، وذلك لكي يقطع على دائرته إمكانية إنكار أي شيء من ديونهم. وعندما يجرب أحد ما أن يفترض منه مالاً أو شيئاً آخر فهو يرفض أن يفعل ذلك غالباً، وإذا حدث أن وافق على ذلك فهو يحسب هذه الأشياء بدقة ولا يتزدد في أن يتتابع هذا مدینه وأن يرسل له في أقرب وقت ممك أن يعيد له مستحقاته أو دينه.

في هذه العودة النموذجية نحو مستوى معين من الفعالities السلوكية الملاحظة، وهذه السلوكيات تعود وبشكل واضح إلى اتجاه واحد هو الريبة والشك والذعر، وهو اتجاه يحمل صاحبه على الشك والارتياب في جميع المحظيين به، وهذا السلوك والاتجاه يكشف عن رؤيته هذا الشخص للعالم إنه عالم يفجع بالمخاطر وإمكانات الواقع في الخطأ. وهذا يعني في النهاية أن عقلية الارتياب تتطرق من مبدأ واحد هو: يجب الحذر⁽²⁴⁾.

وفي هذا المقام يمكن القول أن العقلية تحدد نمط السلوك فعلى سبيل المثال عندما يريد أفراد قبيلة بدائية ما تجنب وباء مثل التيفوئيد فإنهم ينظمون حملة صيد ضد السحرة والساحرات. وهم عندما يفعلون ذلك فإنهم يؤدون فعلًا يبدو لهم منطقياً بحكم المعايير الثقافية التي يعيشون فيها حيث يعتقد بأن الساحرات تحمل مسؤولية انتشار الوباء المذكور في القبيلة⁽²⁵⁾. وهذا يعني أن العقلية التي يتميز بها أفراد هذه القبيلة فرضت عليهم نوعاً من السلوك الذي يتجنبون فيه انتشار الوباء.

⁽²⁴⁾ Alex Mucchiellie, *Les mentalités* Ibid, P9.

⁽²⁵⁾ R.Linton, *De l'homme*, Trad. Ed. De minuit, Paris, 1968, P92.

وفي هذا الخصوص يرى بouthoul G. أن العقلية هي مركب نفسي يمكنه أن يؤسس لعملية التمييز بين المجتمعات، والسمات النفسية والعاطفية في هذا المركب تتميز بالثبات وتشكل منطلقاً لعملية إصدار الأحكام وبناء التصورات والعقائد التي تشكل العمق الذي ينتمي إليه أفراد الجماعة. وهذه التصورات والعقائد تحدد أنماط السلوك والتفكير عند الأفراد في الجماعة المعينة، فالعقلية هي نظام من المرجعيات والمبادئ وقواعد السلوك النموذجي لمختلف أعضاء الجماعة⁽²⁶⁾.

وفي النهاية يمكن القول إن الثقافة ذاتها بمعناها الأوسع هي رؤية للعالم والكون وهي أيضاً وفي الوقت نفسه منظومات من السلوكيات اليومية البسيطة وما يرتبط بها. وهذا المفهوم الشمولي للثقافة يشمل على شروط المعرفة ووسائلها وينطوي على السلوكيات الجسدية والأخلاقية والدينية. وهذا يعني أيضاً أن الثقافة هي في الآن الواحد سلوك وتصور؛ إنها تجسيد حيوي لما تنتوي عليه العقلية من مفاهيم وصور.

بين الأيديولوجيا والعلقية

تشكل العقيدة منطلقاً إلى الأيديولوجيا، والأيديولوجيا تعني نوعاً من التنظيم للأفكار والمبادئ الذي يقدم رؤية للكون، والأيديولوجيا كالعقيدة بناء عقلي يؤسس لتفسير وتبرير رؤية الإنسان إلى الوجود ومن ثم يعطي للسلوك دلالة ومعنى، وهذا يعني في نهاية الأمر تبرير القيم الأساسية البنوية للعقلية، حيث تكون الأيديولوجيا هنا تعبيراً عقلانياً.

ليس من منهجية هذه الدراسة النظر إلى مفهوم الأيديولوجيا *Idéologie* بوصفه مجرد تصور ماركسي. فمفهوم الأيديولوجيا يتتجاوز حدود المعطيات الماركسيّة ويفيض بعناصر وتصورات تتجاوز حدود التوظيف الماركسي المعروف. وهناك تعاريفات عديدة وتوظيفات كثيرة لمفهوم الأيديولوجيا. ويمكننا هنا أن ننبع في هذا السياق على التعريف الكلاسيكي

⁽²⁶⁾ G.Bouthoul, *Les mentalitésm Que sais – je*, P. U. F., Paris, 1971

للويس ألتورس Louis Althusser (1918 - 1990) الذي يقضي بأن الأيديولوجيا "نظام من التصورات (صور، أساطير، أفكار، مفاهيم) يمتلك منطقة الخاص ويمارس دوراً تاريخياً في مجتمع محدد"⁽²⁷⁾. وغني عن البيان أن النظام الأيديولوجي بما ينطوي عليه من مصامين تصورية يشكل قوة حيوية ضرورية لطموحات المجتمع وحياته الدينامية وذلك لأن المجتمع يجد فيه مبررات وجوده وأفعاله.

وفي هذا المنحى فإن التصور الذي يقدمه ألتورس للأيديولوجيا يتناقض مع تصورات ماركس وأنجلز التي تجد نفسها في كتابهما الأيديولوجيا الألمانية. فالإيديولوجيا، كما يراها مؤسساً الماركسيّة، نظام من الأفكار والتصورات التي تشكّل صدى وانعكاساً للوجود الإنساني وهي على الأغلب انعكاس مشوه للعالم الإنساني الحقيقي. وهذا يعني أن الأيديولوجيا لا ترتبط بالحركة الواقعية للتاريخ بل تعبّر غالباً عن مصالح الطبقات الاجتماعية التي تهيمن وتسود في المجتمع. وفي نسق التصور الماركسي يمكن القول بأن الحد الفاصل بين الأيديولوجيا والأوهام واهن جداً، وهذا يعني بالضرورة أن الأيديولوجيا غالباً ما تكون تصورات مزيفة عن الواقع تصب في مصالح طبقة اجتماعية محددة.

وإذا استطعنا أن نتجاوز المفهوم الماركسي للأيديولوجيا فإنه لمن الضرورة بمكان أيضاً أن نتجاوز مفهوم الأيديولوجيا بمعناه التناهري كما يأخذه ريمون آرون R.Aron، حيث تتجلى الأيديولوجيا بوصفها "فكرة للأداء". وفي هذا المسار أيضاً علينا أن نتجنب مفهوم الأيديولوجيا بمعناه البرغماتي والأداتي الذي يقدم الأيديولوجيا بوصفها منظومة من الأفكار التي تسعى لإخفاء الحقيقة أو لتبرير المصالح الاجتماعية.

وحين نأخذ بعين الاعتبار مفهوم الأيديولوجيا كما يقدمه ألتورس Althusser يمكن لنا أن نلاحظ أنماق التجانس الكبير مع مفهوم العقلية. فالعقلية ترتبط بالعقائد المشتركة بدرجة كبيرة

⁽²⁷⁾ Herve Martin, Mentalités médiéval XI – XV, Nouvelles Clio. P. U. F., Paris, 1996, P6.

وبالتصورات المتأصلة في روح الجماعة ووجانها ولا سيما هذه التي تتميز بدرجة عالية من الثبات والاستقرار. فالرموز الأكثر أصالة وتجذرا في الروح الجمعية والأفكار الجاهزة التي اختبرت في رحم الحياة الثقافية تشكل العناصر الأساسية في بنية مفهوم العقلية. وفي هذا السياق يمكن القول إن العقلية تتشكل في قالب الأيديولوجيا من الأعلى وفي القوالب الثقافية من الأسفل وذلك بوصف الثقافة تصوراً شاملأً للكون⁽²⁸⁾.

فرامشي Antonio Gramsci (1891 - 1937) وفوكو Michel Foucault (1926 - 1984) يؤكدان أيضاً أن الأيديولوجيا تتدخل مع منظومة الأفكار الأساسية والنشاطات الحيوية في المجتمع، وهذا يشمل الطقوس والعادات، وهما يعتقدان، مع التوسر Althusser، ولا سيما غرامشي، بقدرة التصورات الخاصة بالوجود على الحصول في مضمون السلوك الاجتماعي. وهذه التصورات قلما تخضع للنقد العقلاني. والجدير بالأهمية هنا هو أن التوسر يشدد على أهمية الجانب اللاشعوري للتصورات والأفكار التي تحمل طابعاً أيديولوجياً. وينتجي هذا الجانب بحسب التوسر في مختلف جوانب السلوك والممارسات الحياتية من أبسطها إلى أشدّها تعقيداً. وفي هذا إقرار عميق بأهمية الأيديولوجيا للحياة الإنسانية، وهنا بالذات يتقطع مفهوم الأيديولوجيا مع مفهوم العقلية بوصفهما تصورات تجذرت في أعماق الوجدان وفي العقل الباطن على نحو لا شعوري. وعندما يجري الحديث عن الأيديولوجيا وفقاً لهذه الرؤية فإن الحديث هنا يقع في مدار العقلية، أي أن الأيديولوجيا والعقلية تأخذان صورة مفهوم واحد.

ومن أجل الفصل بين المفهومين أيضاً يمكن القول غالباً أن الأيديولوجيا غالباً ما تكون تصورات منهجية اجتماعيةً وتسعى إلى تحقيق أهداف حيوية واضحة، وعلى خلاف ذلك فإن العقلية هي حالة سينولوجية لا شعورية تقوم على أساس من التصورات والقيم التي توجه

⁽²⁸⁾ Servier J., L'ideologie, P.U.F., Paris 1982.

سلوك الفرد وتحده بصورة واضحة. ومن جهة أخرى يمكن القول إنه يمكن الفصل غالباً بين السلوك والأيديولوجيا، ولكن العقلية تتميز بعملية اتحاد عميق وشامل بين السلوك والتصورات التي توجهه لأنها تعبّر عن صميم الوجدان الداخلي للفرد والجماعة: إنها تصورات صميمية لا زيف فيها أبداً. ومثناًنا على ذلك أن السلطة تروج أحياناً لتصورات وقيم لا تقع في دائرة إيمان من يروج لهذه الأفكار واقتناعه وسلوكه. فرجل الأعمال الذي يدعو العمال إلى التكشف غالباً ما ينهج سلوكاً يتناقض مع تصوراته التي يصدرها لعماله.

وعلى خلاف ذلك فإن الفلاح مثلاً لا يستطيع أن يخرج سلوكه عن دائرة معتقداته وتصوراته، وذلك لأن معتقداته وتصوراته صميمية وجوهرية ولا يمكنه أن يفصل بينها وبين سلوكه، وعندما يحدث هذا فإن الفلاح يصاب بحالة هذيان وصدمة وجودية: إن فعله يوافق تفكيره وتفكيره يتكامل مع فعله وسلوكه. وباختصار العقلية والأيديولوجيا هما في نهاية الأمر نظامان من المبادئ التي توجه سلوك الفرد والجماعة.

بين العقلية والفلسفة كرؤى للعالم

تزودنا الفلسفات، بوصفها تأملات عامة حول الكون بمنظومه من الأفكار حول هذا العالم، وتأسساً على ذلك يمكن القول بأن الفلسفات هي في نهاية الأمر مناهج تسمح لنا بأن نأخذ المكان الذي نحدد فيه موقفنا من الكون، وكل فلسفة تستند إلى تصورات عقلية توظف في مجال تحديد الصح أو الخطأ، كما تتملي علينا الفلسفة أن نأخذ أيضاً موقفاً من الأخلاق: الحسن، والقبيح، الخير والشر. وكل فلسفة تقدم إجابات محددة عن هذه المشكلات وتلك التساؤلات، وهذا بدوره يحدد رؤية للكون والحياة تأخذ في حساباتها مبادئ المعرفة وتفسيرات تدور حول الوجود والكون والحياة، ومن ثم تلي ذلك تبريرات للسلوكيات التي تتطلّق من أساس هذه الفلسفات.

وفي هذا المستوى من التحليل تتقاطع الفلسفة مع العقلية، فالعقلية بدورها تشتمل على رؤية للكون وعلى مواقف أخلاقية. وهي منظومة مكونة من مبادئ وقيم وأصول مرجعية وتصورات توجد بين مختلف النماذج السلوكية النموذجية في الجماعة، وبالتالي فإن هذه المبادئ والعقائد والقيم والمعايير تشكل المنطق الخاص بالجماعة أو الفرد⁽²⁹⁾. وهذه المنظومة من المبادئ تكون مجردة، فهي كيانات ذهنية تسمح بفهم السلوك وتفسيره، وهذا يعني أن الذهنية يمكنها أن تحدد بوصفها نظاماً الاتجاهات التي تتوافق مع منظومة من المبادئ. فالعقلية هي منظومة من الاستعدادات النفسية التي تعود إلى مرجعية من العقائد التي تحدد النظر إلى الكون والتي تعطي معنى الأشياء، كما أنها توجه السلوك وتحده في الآن الواحد. ومن الواضح بمكان أن نظام المبادئ الداخلي الذي يتغفل في العمق السيكولوجي للإنسان يساعد الأفراد والجماعات على فهم العالم والوسط الذي يعيشون فيه.

وهذا يعني أن المحيط والأشياء تفسر على أساس هذا المنطق، ويضاف إلى ذلك وجود رؤية للعلم VISION AU MONDE تدخل في صميم أي عقلية وهذا يعني أن العقلية والنظرة إلى الكون يشكلان وحدة لا يمكن الفصل بين جنباتها⁽³⁰⁾.

إن النظرة إلى الكون تتحول غالباً حول قضية وجودية، ويترتب على ذلك بالضرورة أن العقلية التي تحمل في طياتها رؤية العالم تولد اتجاهات ومواقف، وهذا يعني أساليب الوجود إزاء عناصر الوسط، ومن المعروف في هذا السياق أن بعض العقليات تتخطى على نسق من الممنوعات المقدسة Tabous ونسق آخر من الأشياء المرغوب فيها، مثل احترام السلطة وممثليها ورفض التجديد وكل ما يمثله. فالذهنية هي مصدر السلوك وهذا يعني مجموعة من السمات الخاصة بالسلوك والتي تكشف عن بعض المفاهيم التكوينية للعقلية المعاصرة.

ويتضح من خلال التحليل المنطقي وجود علاقة جوهرية واستمرارية بين العقلية بوصفها

⁽²⁹⁾ Alex Mucchiellie, *Les mentalités*, Ibid, P8.

⁽³⁰⁾ Alex Mucchiellie, *Les mentalités*, Ibid, P8.

منظومة من المفاهيم، وبين العقلية بوصفها رؤية للعالم والكون وبوصفها منظومة من الاتجاهات التي تتكامل مع المبادئ والسلوك. ولا سيما السلوك (الذي يمكن ملاحظته بسهولة وبصورة مباشرة).

في العصر الوسيط كان الناس وفقاً لعقليتهم يفسرون المصائب والكوارث والأحداث على أنها إرادة ربانية أو عقاب إلهي، وهذه العقلية تثير الفضول والاستغراب والفضول في عصرنا الحاضر. ولكن هذه الرؤية تمثل نقطة جوهرية في العقلية التقليدية القديمة أو العقلية البدائية. فهذه رؤية فلسفية تدخل في صميم بنية العقلية.

إن العقيدة الفلسفية تفعل فعل الذهنية أو العقلية، فهي نظام من المبادئ، ولكن هذه المبادئ تنسم بالوضوح وهي تشكل غالباً سياقاً من المرجعيات المكتوبة. وعلى خلاف ذلك فإن المبادئ الخاصة بعقلية ما تكون غالباً غامضة و يجب العمل على كشف مجاهلها وتضاريسها من قبل الباحث⁽³¹⁾. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن بناء مخطط للاتجاهات الفلسفية السائدة يسمح لنا بتحديد المحاور الأساسية التي تشكل منطلق العقليات السائدة في اتحاد موقف محدد من الوجود واتجاهها.

وفي مسار آخر يمكن أن نورد صيغة أخرى لأنماط رؤية للوجود تتحدد بطبيعة العقلية التي توجه هذه الرؤى. إن الأحجار والصخور لا تحمل بالنسبة للمؤرخ أي معنى في ذاتها، فهو ينظر إلى تاريخ هذه الأشياء وطريقة تشكيلها عبر الزمن في الوديان وصفاف الأنهر وفي طبقات الأرض، وهو يسعى إلى تحديد تاريخ هذه الأشياء والمراحل التي نشأت فيها، وهو بذلك يعطي هذه الأشياء معنى مع عملية بناء معرفته الخاصة. وعلى خلاف ذلك فإن الجبال التي يسكنها الإنسان البدائي، والأشجار التي تحيط به، لا تعني شيئاً بالنسبة للإنسان البدائي، وليس لها أي معاني في ذاتها، فما يعنيه هو إمكانية توظيف هذه الأشياء من أجل حياته

⁽³¹⁾ Alex Muchiellie, *Les mentalités: compréhension et analyses*, Les Editions E.S.F. Paris, 1984, P11.

واستمراره. وهذا ينسحب على الطريقة التي ينظر فيها الفيلسوف إلى الأشياء حيث يبحث عن معانيها وعلاقتها مع الحقيقة وهو يباشر الحقيقة دون أحكام مسبقة ومن غير أفكار جاهزة فهو يبحث عن ماهية الأشياء، وعن طبيعة الأحداث ولذا فهو ينطلق من الواقع، ويحاول أن يكتشف العلاقة التي تربط هذا الواقع بالحقيقة، وذلك عبر عملية التفسير الدائم والتفكير المستمر.

يجب أن ننظر إلى النشاط الفلسفى كمحاولة ذهنية تحدها عملية تفكير تأخذ اتجاهًا محدداً. فكل إنسان يحاول أن يفهم وهذه هي الحاجة الثقافية الأولى عند الإنسان الذي يعطي معنى للحقيقة بأية طريقة من الطرق، وذلك عن طريق إنشاء الأساطير وبناء المعرفة العلمية والتعبيرات الفنية والتفسيرات الدينية وأخيراً عن طريق التفكير الفلسفى. إن تحديد معنى الأشياء يتم بالنسبة للغيلسوف من خلال الكشف المنهج عن العلاقة القائمة بين الأشياء. وهذا يعني أن كل فرد يدرك المجال الذي يعيش فيه وفقاً لمشاعره ورغباته وعقائده ودرجة اندماجه في التاريخ الجمعى للمجتمع الذى ينتمى إليه.

القيمة العقلية

القيمة فكرة جوهرية تأصلت في الوجدان وتبلورت في صميم الشخصية بوصفها محركاً وباعثياً يحدد السلوك وأنماط الحياة وصيغ الوجود. والقيم أفكار نشأت عبر الزمان والتجربة والحياة وتكاثفت ثم تبلورت بوصفها طاقة سلوكية ووجودانية تحدد جوهر الإنسان وكينونته. إنها أشبه بالغرائز التي تفرض على الإنسان اتجاهات حركته، إنها كما يقال النجوم يهدي المرء بها في حلقة الظلام⁽³²⁾. فالقيم هي منظومة أحكام ومعايير تحدد للأفراد والجماعات اتجاهات السلوك، إذ بها ومن خلالها يستطيع المرء أن يميز بين الحق والباطل، وبين القيم والجمال وبين الحق والواجب وبين الشر والخير وبين الغث والثمين. وبالختصار القيم هي هاديات السلوك. وتعد القيم أكثر معايير السلوك أهمية وخصوصية فهي أفكار مكتفة، وهذا

⁽³²⁾ على وطفة، الثقافة وأزمة القيم في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 192، 1995/2. صص 53 - 67.

يعني أنها تشكل نواة التفكير والسلوك، فالقيمة الواحدة تتكون من عدة اتجاهات والاتجاه من عدة أفكار.

ويشار عادة إلى لوتز Lotze بوصفه أول من استخدم مفهوم القيمة وعمل على نشره، كما يشار أيضاً إلى اللاهوتي المعروف ميشيل والاقتصاديين النمساويين مانجر Menger وفون وايزر Von Wissner⁽³³⁾.

فالقيم من حيث المبدأ توفر للمرء صيغة سلوكية تعفيه من مغبة التناقض والصراع وتقويه إلى العفوية. وهي حلول دائمة للمواقف التي تواجه المرء في مسيرة حياته لأنها تبين له المسارات الصحيحة للسلوك والحياة والمحاضلات القائمة في شتى ميادين الحياة.

ينفي دور كهابيم وجود أية علاقة بين خصائص الشيء الكامنة فيه والقيمة التي تعزى إليه. فالمعبود قد يكون مجرد قطعة حجر أو قطعة خشب لا تضر أو تنفع ومع ذلك يشعر الناس تجاهها بالتقديس والرهبة والخشوع⁽³⁴⁾. فالعالم لا خير فيه ولا جمال، فنحن الذين نضفي عليه سمة الخير والجمال⁽³⁵⁾.

ويشير روبن ولIAMZ Robin Williams أن "مفهوم القيم يتضمن عناصر متعددة ترتبط بالشعور Conscience والعاطفة Emotion وهي ذات تأثير مباشر على سلوك الأفراد وأفعالهم بل هي في الواقع وراء كل سلوك⁽³⁶⁾.

ويؤكد ألفن Alven أهمية القيم في تنظيم السلوك الإنساني وهي بالتعريف "معايير خلقية وأفكار وأحساسات تجريدية يحملها أفراد المجتمع وتعمل على تحديد طريقة التفكير ونمط

⁽³³⁾ فوزية دياب: القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة المصرية، القاهرة، 1980.

⁽³⁴⁾ دياب - فوزية: مرجع سابق.

⁽³⁵⁾ زكي نجيب محمود: "خرافة الميتافيزيقيا" مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1953 (ص 130).

⁽³⁶⁾ مائدة محمد حامد الأفendi: "المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية لتعليم المرأة" دار العلوم، الرياض، 1983، (ص 90 - 95).

السلوك. ويعتقد يونغ Young أن القيم تستند إلى الأفكار والمعتقدات فيما هو مرغوب فيه أو غير مرغوب فيه، فيما هو صواب أو خطأ⁽³⁷⁾.

يعرف غيث القيمة "بأنها الصفات الشخصية التي يفضلها أو يرغب فيها الناس في إطار ثقافة معينة وهي ليست صفات مجردة بل أنماط سلوكية تعبّر عن هذه القيم. فالقيم ثقافية الأصل والاتجاه، وهي من مواجهات السلوك⁽³⁸⁾.

فالقيمة على حد تعبير دياب هي "الحكم الذي يصدره إنسان ما على شيء ما مهتماً بمجموعة من المبادئ والمعايير التي وضعها المجتمع الذي نعيش فيه والذي يحدد المرغوب فيه والمرغوب عنه من السلوك⁽³⁹⁾. ويعرفها روجيه Guy Rocher بأنها طريقة الوجود والفعل التي يعترف فيها المجتمع أو الجماعة كشيء مثالي مرغوب فيه⁽⁴⁰⁾.

وإذا كانت القيمة كما يراها روجيه صنوا للعقل والحركة الاجتماعية، فإنها تتبدى عند موريس بوصفها "السلوك المفضل أو المرغوب فيه من بين عدد من التوجهات المتاحة أمام الفرد"، وهي هنا تتكافأ أيضاً مع المرغوب فيه والمستحسن من السلوك⁽⁴¹⁾. وفي رؤية أخرى تأخذ القيم صورة "أحكام يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات والأشياء وذلك في ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو للأشياء، وتأخذ صيغة اتجاهات مركبة نحو ما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه ونحو ما يصح وما لا يصح⁽⁴²⁾.

وتتحدد القيم إجرائياً على النحو التالي:

⁽³⁷⁾ ماشة محمد حامد الأقدي: المرجع السابق.

⁽³⁸⁾ غيث – عاطف: "علم الاجتماع"، دار المعارف، القاهرة، 1962، (ص 275).

⁽³⁹⁾ فوزية دياب: مرجع سابق (ص 52).

⁽⁴⁰⁾ Guy Rocher, ibid, O.90.

⁽⁴¹⁾ عبد اللطيف محمد خليفة، "ارتفاع القيم (دراسة نفسية)" ، عالم المعرفة، عدد 160 لبريل/نيسان، 1992، (ص 53).

⁽⁴²⁾ عبد اللطيف محمد خليفة، ارتفاع القيم (دراسة نفسية)، مرجع سابق (ص 57).

1. محك نحدد بمقتضاه ما هو مرغوب فيه أو مرغوب عنه في موقف توجد فيه عدة بدائل.
2. تحديد القيم أهدافاً معينة أو غايات أو وسائل لتحقيق هذه الأهداف والكافئات.
3. تساعد في الوصول إلى حكم سلبي أو إيجابي على مظاهر معينة من الخبرات.
4. تأخذ صيغة يجب أن ... ينبغي أن ... أي هناك خاصة الوجوب والإلزام⁽⁴³⁾

إن حكم القيمة يختلف عن حكم الحقيقة الذي يباشر حادثة أو ظاهرة في الواقع كما يلاحظ دور كهابيم. فالقيمة ذاتية وهي تترجم عن معنى بضميه الإنسان إلى شيء ما، أو موضوع ما، وهذا يعني أن حكم القيمة هو حكم تفضيل يعبر عن وضعية صاحب القيمة، وهذا يعني أن كل عقلية وأيديولوجيا تشكل منظومة من الأحكام والقيم الممكنة. والقيم كما يبدو هي التوازن الأساسية للعقلية لأن العقلية تستند إلى مجموعة من القيم التي تشكل مضمون العقلية عند الإنسان. وهذا يعني بالضرورة أننا عندما نستطيع تحديد منظومة القيم التي توجه سلوك فرد من الأفراد فإننا نستطيع أن نحدد مضمون العقلية التي توجهه.

ويتم في هذا السياق الإشارة إلى منظومة من القيم التي تدخل في صميم الذهنية الفردية أو الجمعية مثل: الخير كقيمة أخلاقية، والقداسة كقيمة دينية، والحقيقة كقيمة عقلية، والجمال كقيمة جمالية، والعدالة كقيمة قانونية، والسلطة كقيمة أساسية، والوجود كقيمة فلسفية. وباختصار يمكن القول بأن العقلية تستند إلى منظومة من القيم الأساسية التي تحدد نمط الوجود واتجاهات السلوك والتفكير عند الإنسان الفرد وعند الجماعة أو في مستوى المجتمع. وباختصار يمكننا القول أن القيم تأخذ مكانها بوصفها منطلقات للسلوك، ولكن العملية التي تحول بها هذه القيم إلى طاقة وقدرة كلية متماشة في عملية توجيه السلوك تشكل ما يسمى بالعقلية، فالقيم هي منطلقات العقلية والعقلية هي الصيغة التي تأخذ فيها القيم صورتها الدينامية في كينونة إنسانية تتضاد في معطيات التجارب الحياتية بخصائصها السيكولوجية والمعرفية لتعطي سلوك الفرد هوية ودلالة ومعنى.

⁽⁴³⁾ عبد اللطيف محمد خليفة، ارتقاء القيم (دراسة نفسية)، مرجع سابق (ص 60).

بين مفهومي الشخصية الأساسية والعلقية

يحتمل التداخل بين مفهومي الشخصية والعلقية بصورة كبيرة جداً قد تصل إلى حد التطابق. فالشخصية الأساسية (Personnalité de base) كما يعرفها كاردينير Kardinere (1891 - 1981) بأنها "شكل نفسى خاص بأفراد مجتمع محدد والتي تتحدد بنمط الحياة وأسلوب الوجود الذي يتميز به أفراد الجماعة، وهذا التشكيل يأخذ صورة القالب الذي تنمو فيه السمات الأساسية للإنسان ولهذا فإن جميع الكومانش هم كومانش وجميع الفرنسيين هم فرنسيون⁽⁴⁴⁾. ويعرف جوردن ألبورت Gordon Allport بأنها "تنظيم دينامي لوضعيات نفسية فيزيائية تحقق للفرد تكيفه مع الوسط الاجتماعي". وهذا يعني أن الشخصية ليست وجوداً مادياً فحسب بل هي كيان متناسق من التصورات الحرة والأحساس الروحية والمشاعر⁽⁴⁵⁾. ويبين لنا جيلسون Gilson أن الشخصية هي كينونة الروح والجسد وأن التفكير الإنساني لا ينبع من عطاءات الروح فحسب، بل ينطلق من الإنسان ككل متكامل، وهذا يعني أن الحياة الداخلية للإنسان تتجه، في سياق تفاعಲاتها مع العالم الخارجي، نحو بناء وإعادة بناء الشخصية الإنسانية في حركة دائمة من أجل وحدتها وكمالها⁽⁴⁶⁾.

هذا وتتحدد السمات الأساسية للشخصية الأساسية في مجتمع ما بطبع الثقافة السائدة في المجتمع، وترتبط بنية الشخصية على حد تعبير رaimond Boudon (1934 - 1994) ارتباطاً وثيقاً بالثقافة المحددة لمجتمع معين "وفي هذا الصدد يرى كاردينير A.Kardiner أن كل نظام اجتماعي تقافي يتميز بشخصية مرجعية فالأنما هي تربت تقافي، وبالتالي فالشخصية الثقافية تتباين من ثقافة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر.

وفي هذا الخصوص يرى تالكوت بارسونز (1902 - 1979) أن الأمريكيين

⁽⁴⁴⁾ M.Dufrenne, La personnalité de base, P.U.F., Paris, 1972.

⁽⁴⁵⁾ G.Allport, structure et développement de la personnalité, Tr. Fr., Delachaux- Niesite, Paris.

⁽⁴⁶⁾ Jean - Claud Filloux, La personnalité, P.U.F., Onzième corrigée, Paris, Que sais je, NO 756, Paris. 1986, P.58

يعطون أهمية للكمال أكثر من الأملان بينما يعطون أهمية أقل منهم للمحافظة، وتقوم افتراضات الشخصية الثقافية أو الأساسية على مبدأ أن "القيم والعناصر الثقافية للنظام الثقافي تستبطن بأمانة من قبل الفرد وهي تشكل نوعاً من البرمجة الناظمة لسلوكه⁽⁴⁷⁾.

وفي إطار هذه الصورة فإن الشخصية تعكس إلى حد كبير السمات الثقافية لمجتمع الانتماء، ويبين هذا في التباين السلوكي الذي يظهر بين شخصين ينتهيان إلى ثقافتين مختلفتين، حيث يمكن تمييز رجل فرنسي عن رجل إنجليزي من خلال بعض أنماط السلوك التي يقوم بها كل منهما. وهذا يعني أن الشخصية تتضمن على السمات العامة الثقافية لمجتمعهم والتي تحدد نمط الشخصية الأساسية لهذه الثقافة⁽⁴⁸⁾.

ويترتب على ما سبق أن لكل ثقافة شخصية أساسية مرئية تعكس صورة القيم السائدة أو الصبغة النفسية للحياة الاجتماعية والثقافية القائمة، كما يمكن أن نلاحظ وجود شخصيات مرئية ثقافية لكل ثقافة فرعية أو مجتمع فرعي في إطار المجتمع الكبير.

وبينبني على ما سبق أن الشخصية الأساسية ترمز إلى العقلية السائدة في مجتمع ما وهذا يعني بالضرورة أن مفهوم الشخصية الأساسية هو تعبير آخر عن مفهوم العقلية في نسقها الاجتماعي. ويتبين من خلال التعريفات التي قدمناها وجود قرابة وتجانس كبيرين بين مفهومي الشخصية الأساسية والعقلية. فكلماها يستند إلى منظومة من القيم الثقافية البنوية التي توجه السلوك، وكلها يشكل تنظيماً نفسياً دينامياً للسلوك، كما أنهاما يشكلان نمط السلوك والحياة عند الإنسان في مجتمع محدد.

الهوية والعقلية

ت تكون هوية الإنسان من مختلف العناصر التي تشكل وجوده والتي تميزه عن الآخرين،

⁽⁴⁷⁾ ملك أبيض، الثقافة وقيم الشباب، وزارة الثقافة، دمشق 1984، ص: 230.

⁽⁴⁸⁾ Gilbert.Durand: Les grands textes de la sociologie moderne, Bordas, Paris, 1969. P.91.

ومن هذه العناصر يشار إلى الاسم والملكية والجنس والكافرات والأحوال الشخصية وتاريخ الفرد وعلاقاته وعقليته وقيمه. وتنبرز العقلية في هذا المقام كعنصر مميز في تكوين الهوية لأنها تترجم خصائص الكائن وتاريخه وعلاقاته. فالعقلية وعبر توسط الاتجاهات والأراء والمقولات والسلوكيات التي تنتجهما تؤدي وظيفة التعبير عن الهوية. فالفرد ومن خلال آرائه وسلوكياته يمكنه أن يحدد منظومته القيمية ونوعية الشخصية التي يرغب في أن يقدمها.

ومن هذا المنطلق فإن العقلية تشكل (كما سبق وبيننا) مصدر السلوك الذي يتكامل مع نظام التفكير الذي يجسد العقلية. فكل كائن اجتماعي يسعى إلى تنظيم الوضعيات التي تعطيه الشعور بالارتياح وتجعله يعبر عن هويته، وهذا يعني أن العقلية تتدخل في بقاء هذه الظروف والشروط المناسبة وهي وبالتالي تحتوي على الهوية وتنظمها بطريقة اجتماعية.

وعلى هذه الصورة تأخذ العقلية صورة الهيكل الأساسي الوجودي للإنسان، فعندما تتعرض العقائد والقيم الخاصة بالشخصية للهجوم أو الانتهاك فإن الشخص يتعرض لأزمة هوية، وبالتالي فإن الحصر والقلق والشك يولد عند الإنسان ردود فعل دفاعية يمكنها أن تصل إلى حد الانطواء على الذات أو إلى العدوانية المكففة، وذلك مروراً بمحاولات التبرير والانسحاب. وفي النهاية يمكن الإشارة إلى وظيفة المشاركة الاجتماعية التي تؤديها العقلية. فنحن ننتمي إلى جماعات ونشارك في نشاطاتها، وذلك لأننا نجد في داخل هذه الجماعات أفكارنا وآرائنا. وعندما نشارك مع أقراننا بنمط العقلية فإننا نعزز الثقة بأنفسنا ونظامنا في أعماقنا نحن.

حدود العقلية في سياق الموقف من قضايا الوجود

تشكل العقلية حاضرنا وجودياً ودينامياً للعقائد والقيم المركزية التي تسود المجتمع. ومن هذا المنطلق فإن العقلية تشكل الروح الداخلية التي تنظم حركة الفعل الإنساني وتوجهه إلى غاياته المرسومة. وهذا يعني أن العقلية تمارس وظائف جوهرية في مجال الوجود الإنساني. وفي

هذا السياق فإن جوهر العقلية يتحدد باتخاذ موقف حيوية من المعضلات والإشكاليات التي يواجهها الإنسان في الحياة. وهنا يمكن الإشارة إلى خمسة من الإشكاليات الأساسية التي تطرح نفسها بقوة على الإنسانية والتي يجب على الناس أن يقوموا بالإجابات عنها.

أولاً: إشكالية الوجود والطبيعة الإنسانية

تعد فكرة الوجود والعدم وماهية الإنسان الهاجس الذي يقضى مضاجع العقل الإنساني منذ الأزل. وهذه الفكرة تكمن في أصل الثقافات والأساطير والملامح والفلسفات الإنسانية التي حاولت وما تزال تحاول أن تبحث في ماهية الوجود الإنساني في مبتدئه والخبر.

ويعد الموقف الوجودي الذي يتخذه الإنسان من هذه القضية – قضية الماهية والوجود والعدم – الركن الأساسي في بنية العقلية. وعلى أساس هذا الموقف تتحدد غمرات الصور الذهنية التي تشكل القبيص الداخلي الوجودي للعقلية الإنسانية. وهذا القبيص هو الذي يمهد لعطاءات الصور الخارجية لمفهوم العقلية.

فالأفراد يطرحون منذ البدء أسئلة وجودية حول طبيعة الإنسان و מהيته وغاية وجوده. ويستمدون الإجابات حول هذه القضية من معين ثقافتهم وينابيعها التي تحدد بأساطيرها وخرافاتها وأديانها وملامحها وفلسفاتها موقعاً من الوجود يرسم إجابات غامضة حيناً واضحة أحياناً أخرى حول قضيابا الوجود والعدم والطبيعة الإنسانية. وعلى أساس هذه الإجابات تتشكل النواة الأولى لبنية العقلية عند الإنسان.

ولقد سجلت الإنسانية على مر الأزمان الإيمان بقوى سحرية أو روحية خالدة توجه حياة الإنسان وغاية وجوده. وحول هذا الجانب السحري تدور الأساطير والملامح عند البشر. وهذا يعني أن فكرة ثانية الوجود: الوجود المادي والوجود الروحي هي التي تسود عبر تاريخ الإنسانية. وحول هذه الفكرة تتحدد مفاهيم الحق والخير والجمال.

وقد شكل المبحث الوجودي حقلًا مركزياً في الفكر الفلسفى ولا سيما منذ سocrates الذي دعا

إلى معرفة النفس الإنسانية، ووجه النداء إلى الإنسان بعبارته المشهورة: أيها الإنسان اعرف نفسك. حيث كانت معرفة النفس الإنسانية، بالنسبة إليه، أشرف المعرف وأظهرها. ثم جاء أفلاطون، فنظر إليها في عالياتها عارفة، طوافة في عالم المثل، تستمد شعاع ضيائها من مثل الخير الأعلى، غاية الوجود ومنتهي الغايات. وهي عند أرسطو أرقى مراتب الوجود الإنساني، وفيها جانب نوراني متجرد عاقل، وهي، فوق ذلك كله، صورة النفس الإنسانية وغايتها.

وفي هذا الميدان سطر فلاسفة العرب أجمل المواقف إزاء إشكالية الوجود وفي ماهية النفس الإنسانية، إذ تأملوها وقلبوا في معانيها، وهتكوا حجبها، وأفاضوا في الحديث عن أسرارها، وهما ذا الشيخ الرئيس أبو علي الحسين ابن سينا يضفي عليها مظاهر الخلود والتجرد، فهي التي هبطت إلينا من عالم الخلود، وهي التي تعود بعد الموت صافية نقية، إلى عالم نوراني لا يعرف غير الصفاء والنقاء.

ويفرد فلاسفة فصولاً لمباحث النفس، فمنهم من يدركها في مظاهرها، ومنهم من أدركها في جوهرها، فنسبيوا إليها جوهر وجود روحي متفرد مجنس للقوى الكونية التوازنية العليا، وإذا كان منهم من يقول بفنائها، فمنهم من يرفع شعار خلودها وغائنها. ويمكن الإشارة في هذا الصدد، بصورة خاصة، إلى شيلنخ، وهيجل، وشوبنهاور، وكاروس، وهارتمان، بوصفهم أبرز المفكرين الذين تناولوا الجوانب الغامضة للنفس الإنسانية بالدراسة والتأمل والتحليل.

ومهما يكن موقف الإنسان من الطبيعة الإنسانية وغايتها الوجودية فإن هذا الموقف سواء أكان ثابتاً أو أحدياً، روحياً أو مادياً، فإن في هذه الإجابة تكمن النقطة العقدية في كل عقلية إنسانية. فهذا الموقف يحدد للإنسان مفاهيم الخير والشر والحق والواجب والكمال.

بعض الثقافات يرى أن الإنسان ثانوي الماهية (روح وجسد) وبعضها يرى أن الإنسان أحادي الماهية إذ هو جسد يدحره الفناء. بعضها فيرى أن الإنسان خير بطبيعته وبعضها يرى بأنه شرير في كينونته، أما بعضها الآخر فيرى أنه كيان مركب من الخير والشر في آن واحد كما يرى أرسطو، حيث لا تكون فضيلة إلا باجتماع عقل وشهوة، فإن انتصر العقل تحققت الفضيلة.

ومن أجل تقديم صورة نموذجية لطبيعة الموقف من الماهية يمكن أن نتأمل في الفكرة البوذية التي ترى أن الإنسان ماهية تحدها التجربة الإنسانية في دورات حياتية متتالية وفي كل دورة تتحقق للإنسان دورة اصطفاء تجعله يقترب أو يبتعد من جوهر الوجود التي تتمثل في "الفيدا" أو في الروح الكلية التي تشكل غاية الغايات. وبالطبع فإن الاقتراب إلى حالة الصفاء مرهون ب مدى قدرة الإنسان على التحرر من سطوة الشهوات وحكم الجسد ومن يستطيع أن يتحرر ويسطر على إكراهات الشهوة والميل يصفو ويتحدى مع النور الأعلى، مع الذات الإلهية، مع الترفانا بلا حدود. ومن لا يستطيع فعله أن يتحمل الانحدار الكلي في عالم الجماد والفساد. هذه الرؤية الفلسفية أو الموقف من الوجود يحدد للإنسان مضامين الخير والشر والفساد ومعنى الحياة. ولذا فإن البوذى يعمل بكل ما يمتلك من طاقة على تحقيق الخير والانتصار على الشهوة من أجل عالم الحق والخير والجمال.

في بعض القبائل البدائية التي يشير إليها فرويد في كتابه التوتم والتابو يعتقد أفراد هذه القبائل بأن أرواح الأجداد تأخذ صيغة دنيوية إذ تتحد في توتم في شجرة أو حيوان، ولذا فإنهم يتذكرون موقف وجودية وحياتية من هذه التواتم التي ترمز إلى ماهية الإنسان وأسرار وجوده. وعلى أساس هذا الموقف تتحدد نظرتهم إلى الحق والخير والجمال⁽⁴⁹⁾. في بعض القبائل ينهي عن تناول لحوم بعض الحيوانات مثل البقر أو الطيور لأن هذه الحيوانات تمثل طوطم القبيلة.

ولقد تحدد موقف اليونانيين والسموريين والمصريين من هذه الطبيعة الإنسانية عبر أساطيرهم الخالدة وملامحهم البدعية التي نجدها في الإلياذة والأوپنیسة وفي أسطورة أوديب وملحمة جلجامش وفي أساطيرخلق الموت والعدم⁽⁵⁰⁾. هذه الأساطير تتضمن جذورها في المخيلة الإنسانية بصورة لا شعورية فتحدد عناصر العقلية الذي يتصل بالموت والوجود

⁽⁴⁹⁾ سغموند فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، دار الحوار للنشر، اللاذقية، 1983، ص 23.

⁽⁵⁰⁾ انظر: صموئيل هنري هووك، منعطف المخيلة البشرية، بحث في الأساطير – ترجمة صبحي حيدري، دار الحوار، اللاذقية، 1995.

والعدم. غالباً ما ترتبط هذه الأساطير بقضايا وثيقة الصلة بالحياة فتشكل رموزها نسقاً من القيم والطقوس التي تحفر في أعماق الوجدان وتشكل المضمون الحيوي للذئنية أو العقلية.

ثانياً: إشكالية الأنما والأخر

يوجد الإنسان في فضاء إنساني، وكما يقول سارتر إن الوضعية الأساسية للكائن الإنساني هي أن يوجد وأن يحدد وجوده بالنسبة للأخر، وهذا يعني ضرورة التفاعل معه أي التفاعل مع الآخر. النظرة إلى الآخر مرهونة بما تتطور عليه من منظومات العقائد والأساطير التي تبحث في هوية الإنسان وفي طبيعته.

ومن المدهش حقاً أن تتطور العقائد والأساطير القديمة على فيض من المعانى الإنسانية التي تدعو الإنسان إلى الحب والتسامح. وقصة الوصايا العشر ليست فريدة في تاريخ الموسوية بل تجد هذه الحقيقة صداتها في قانون جانت (Jante Law) في النرويج وهو قانون يعتقد النرويجيون. ينص هذا القانون على وصايا عشر تحدد العلاقة بين الأنما والأخر على هذا النحو :

- لا تظن نفسك أفضل من غيرك.
- لا تعتقد أنك تعرف أكثر من غيرك.
- لا تظن نفسك أكثر حكمة من غيرك⁽⁵¹⁾.

وهذا القانون يؤكد على قيم التسامح والتواضع واحترام الآخر وقبول مبدأ الاختلاف وهي قيم أصيلة اليوم في الروح الثقافية في النرويج.

ويعرف تاريخ الإنسانية قبائل لا يوجد في مفرداتها وقاموسها اللغوي إلى ما يشير إلى

⁽⁵¹⁾ عبد السميم سيد أحمد، الترجессية الثقافية، قراءة في أريك فروم، التربية المعاصرة، عدد 26، س 10، مارس/ آذار 1991، (ص 75-65) ص 66 .

القتل أو إلى العنف. ففي الفلبين تم الكشف حديثاً عن إحدى أقدم القبائل التي تدعى "تاسادي" "Tasa Day" وأساليب حياة هذه القبيلة تعود إلى العصر الحجري والتي تم اكتشافها في غابات الفلبين. وقد بينت الدراسات والأبحاث الجارية حول طبيعة الحياة والثقافة في هذه القبيلة أن قاموس القبيلة اللغوي يخلو من الكلمات والألفاظ التي تشير إلى القتل أو تنبه إلى الشر والعدوان، وعلى خلاف ذلك تفيض لغتهم بعبارات الحب والتسامح والإخاء⁽⁵²⁾. وينبني على هذه الحقيقة أن عقلية "التاسادي" تتميز بموقف إنساني يقوم على احترام الآخر ومحبته وعلى أن العالم يفيض بالخير، فالإنسان كيان خير بالمطلق ومحبته واجب والحياة معه ممكنة على مبدأ الأخاء والمساواة.

ومن أجل توضيح طبيعة العلاقة بين الذهنية والتصورات التي تغدقها الأساطير أو الأديان أو الفلسفات حول الطبيعة الإنسانية يمكن أن نعود إلى مثال عقلية الحذر، فالحذر غالباً ما يعتقد بأن الإنسان شرير بطبيعته، ولذلك فهو على أساس هذه الفكرة يبني مواقفه الحذرية من الآخرين لأن الآخرين متسبعون بقيم الغدر والخيانة والعدوان.

وفي غالب الأحوال توجد عند الإنسان قوالب ذهنية نمطية حول الآخرين، وهو من منطلق هذه الصورة يحكم على الآخرين بوجوب الحياة أو العدم. فالقتل من غير سبب عند أغلب الشعوب جريمة يحاسب عليها الإنسان من قبل القوى الكونية العليا.

وفي هذا المسار يمكن الحديث عن العقليات العنصرية والتعصبية التي تتفّق موقفاً عدانياً ودموياً من الآخرين. ويمكننا أن نسوق في هذا المجال أمثلة متعددة من تاريخ الأقوام البدائية. فبعض الأقوام البدائية تعرف بموافقها المتوجهة تجاه الأعداء. ومع ذلك فإن القتل له طقوس ومحاذير وشروط معقدة مركبة كما يذكر فرويد في كتابه "الطوطم والتابو" حيث يصنف طقوس القتل إلى أربعة مستويات هي:

1. مصالحة العدو المقتول.

(52) عبد السميم سيد أحمد، الترجمية الثقافية: قراءة في إريك فروم، ص 67.

2. تقيدات في القتل.

3. تصرفات تكفيرية لتطهير القاتل.

4. إجراءات طقوسية معينة⁽⁵³⁾. فمن أجل مصالحة أرواح الأعداء المقتولين تجري طقوس تطهيرية يجري فيها ندب العدو المقتول ويطلب منه السماح، حيث يقال لرأس العدو المقطوع في هذه الطقوس: "لا تغضب منا لأن رأسك عندنا هنا، لو لم يكن الحظ معنا لربما كانت رؤوسنا معلقة في قريتك، والآن يمكن لروحك أن تكون راضية وأن تدعنا في سلام. لماذا كنت عدوا لنا؟ ألم يكن أفضل لو بقينا أصدقاء؟ عند ذاك ما كان دمك قد سفك وما كان رأسك قد قطع"⁽⁵⁴⁾.

هذا الموقف والأمثلة لا تحصى في استرضاء أرواح الأعداء ورؤوسهم والخوف من هذه الأرواح وإجراء طقوس متنوعة ومبرمجة تدل بصورة ما على وجود موقف وجودي من الآخر ومن الموت ومن هوية الوجود. وهنا نجد ما يعزز الفكرة التي سبق وناقشناها حول الموقف من الطبيعة الإنسانية. وفي كل الأحوال فإنه رغم الخشونة والفظاظة التي تبديها هذه المواقف إلا أنها مشوبة بالعنصر الإنساني وهو أن العدو إنسان يتكون من روح وجسد وبالتالي يجب احترام الإنسان جسداً وروحاً والقتل يجري بشروط محددة اجتماعية.

فعلى أساس هذه النظرة تتعدد مصائر الشعوب والفتات الاجتماعية والأمم. وما الحروب العرقية التي تندلع هنا أو هناك غير تعبير عن رؤية عرقية فاشية للأخر تبرر إفناءه وتدميره كما يحدث في فلسطين وفي كوسوفو وكما حدث للهنود الحمر في أمريكا.

وتبذل اليوم الإنسانية جهوداً كبيرة في تأكيد قيم التسامح والإيمان بحق الاختلاف وحق الآخرين في الوجود مهما تباينت أصولهم الاجتماعية والفكرية والعرقية. وفي داخل المجتمع الواحد تبرز اليوم أهمية بناء عقلية ديمقراطية تؤمن بحق الآخر في الاختلاف والوجود وحرية الرأي والتملك والحق في الحياة والعدالة والمساواة. ويطلق على المجتمعات التي استطاعت أن

⁽⁵³⁾ سigmوند فرويد، الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسين، دار الحوار للنشر، اللائقية، 1983، ص 59.

⁽⁵⁴⁾ سigmوند فرويد، الطوطم والتابو، المرجع السابق، ص 60.

تضمن هذه القيم وأن تعرسها في العقلية بالشعوب الليبرالية الحرة. والوصول اليوم إلى هذا المستوى وبناء مثل هذه العقليات يشكل هاجس الأحرار في هذا العالم. وفي كل الأحوال فإن هذا الجانب الذي يتصل بعملية النظرة إلى الآخر يشكل اليوم منعطافاً تاريخياً في حياة الشعوب والأمم. وهذا ما تسعى إليه المنظمات الإنسانية اليوم في تأكيد مبدأ الأخاء وفن التعالق الإنساني والسلام ومبدأ الاختلاف وحرية الرأي. وعندما تستطيع الإنسانية تأصيل هذه القيم في البنى الذهنية فإن هذا يؤكد مستقبلاً مشرقاً لمجتمع إنساني من غير تعصب أو عنف أو إكراه.

ثالثاً: إشكالية الزمن: الحداثة والتقاليد

يجري الزمن على إيقاعات ثلاثة متتابعة في دائرة المكان تتمثل في الماضي والحاضر والمستقبل. وفي موقف الإنسان من الزمن تتحدد إحدى معالم هوبيته وموقه من الوجود، بعض الشعوب تعظم الماضي وبعضها يولي الحاضر أهمية أكبر، أما بعضها الآخر فيندفع إلى المستقبل بلا حدود ويرفع شعاراً لوجوده وحضارته. وعلى أساس إيقاعات الزمن يجري تصنيف الشعوب والأمم إلى مجتمعات تقليدية أو مجتمعات معاصرة حديثة. فالمجتمعات التقليدية تمجد الماضي وتدور في ثناءه وتضاريس وجوده. أما المجتمعات الحديثة فهي هذه التي تجد نفسها في اللحظات الآتية التي تقتضي من الإنسان الإبداع والمبادحة والمغامرة نحو آفاق إنسانية أكثر عمقاً وأصالة. المجتمعات التقليدية التي تمجد الماضي مجتمعات ساكنة "ستاتيكية" أما المجتمعات التي تمجد المستقبل تأخذ صفة المجتمعات الدينامية الحرة.

وعلى أساس الموقف من الزمن تصنف أيضاً العقليات إلى عقليات تقليدية جامدة متجردة تعيش في الماضي ولأجهه وتدور في فلك الأسلاف والأجداد والتقاليد القيمة. وهنا نجد أن محتوى هذه العقليات ومضمونها عقائدياً وقيمياً ينتمي إلى مرحلة سابقة من التطور الاجتماعي والفكري كالأيمان بالسحر والشعوذة والتقاليد وأرواح الآباء والأجداد وقيم الزمن الماضي بغضها وسمينها، ومن ثم الإعلان عن موقف الحذر والريبة من كل جديد وابتکار مهما يكن مضمونه.

والحق يقال إن الموقف من الزمن يأخذ أهمية كبيرة في تاريخ الحضارات، وما زال هذا الموقف من الزمن يشكل المعادلة الصعبة التي تواجه بعض الأمم والشعوب في مسار تقدمها وحضارتها. فالمضامين الحررة للعقلية التي تفلت من أقفال التقليد ومن حصار الزمن الماضي بما ينطوي عليه هذا الزمن من تصورات أسطورية وخرافية بائدة يشكل منطلق النهضة الحضارية لهذه الأمم وهذه الشعوب. فبعض الشعوب ومنها الشعب العربي ما زال يخشى المستقبل بما ينطوي عليه هذا البعد الزمني من عطاءات حضارية إنسانية، وهذه الشعوب تعيش بعقلية تاريخية قديمة تجاوزتها الحياة. فالزمن الماضي يأخذ موقع القداسة وهو زمن يزحف بمعادلته الصعبة إلى الحاضر ويسجل حضوره المتجدد في المستقبل. وهذا يعني أن هذه الشعوب تعيش في ليقاع الزمن الواحد، الزمن الماضي، فلا تغادر فناءه أو تتجاوز حدوده، وهذا يعني توقف دورة الزمن والحضارة وتراجع اندفاعات الإبداع والتطور الإنساني.

وفي هذا الفضاء يمكن القول إن الموقف من الزمن تحكمه عقلية ثقافية محددة وبالتالي فإن تغيير الموقف يتطلب تحريض العقلية السائدة على تبني موقف جديد يواكب حركة الزمن بما ينطوي عليه من إرهاصات إبداع وحركة وتحرر وحداثة نحو قيم إنسانية خلقة ومبدعة.

رابعاً: إشكالية العلاقة مع الطبيعة والكون

وكما في دورة الزمن تتعدد إحدى أهم خصائص العقلية في موقفها من دورة المكان مجسداً في الطبيعة. فالأحداث رهينة بتأثيري وجود تمثل في الزمان والمكان. وإذا كانت لحظات الزمن تتجسد في إيقاعات الماضي والحاضر والمستقبل، فإن لحظات المكان تتجسد في إيقاعات القداسة والوضعية، وهذا يتطلب موقفاً إنسانياً يتمثل في علاقة خضوع للطبيعة ومعطياتها أو علاقات سيطرة عليها.

الإنسان التقليدي يخضع للماضي، والطبيعة جزء من ماضي الوجود، وهي قوى أضعف على إنسان طابعاً قدسياً خارقاً، ولذا وفي لحظة تقاطع الزمان بالمكان فالعقلية تأخذ الطبيعة صورة القدرة السماوية الخارقة التي تقضي بخضوع الإنسان المطلق لإرادة هذهقوى

الطبيعية. وعلى خلاف ذلك تجري العقلية الحديثة العلمية على الإيمان المطلق بقدرات الإنسان ولذا فهو ينزع إلى السيطرة على قوى الطبيعة وإخضاعها لرادته. وهذه هي إرادة الحضارة.

فالعقلية في النهاية تتخذ موقفاً من القوى الطبيعية والعقلية التقليدية أميل إلى الخضوع الصاغر لقوى الطبيعة والإيمان بعجز الإنسان عن السيطرة. أما العقلية الحرة العلمية فهي التي تومن بالقدرات اللامحدودة للبشر.

وبعبارة أخرى العقلية التقليدية تضفي على العالم روحًا قدسية تحرك طاقة الوجود، وترى أن العالم الذي نعيش فيه مخضب بلمسات أرواح كونية قدسية تدفع الوجود إلى غيابات نجهلها، وعلى التباين من هذا الموقف تتخذ العقلية العلمية موقفاً مادياً من الكون يتمثل في أن هذا الكون لا روح فيه بل هو طاقة مادية تحركها قوانين مادية صرفة، والإنسان يمتلك القدرة عندما يكتشف قوانين الكون على التأثير فيه وتنقين حركته. يتجسد هذا الرأي في موقف الإنسان من عالم الفضاء وما حققه من ثورات تقنية مذهلة، وهو اليوم بصدده تغيير التيازك القادمة من الفضاء لحماية الأرض من كوارث كونية شاملة. وباختصار يجب علينا عندما نريد تحديد هوية عقلية ما أن ندرك أبعاد هذه العقلية فيما يتعلق بالزمان والمكان.

خامساً: مسؤولية الإنسان بين الحرية والحتمية

فالإنسان يمكن أن يسلك وفقاً لأنماط متعددة. وهو يمكن أن يأخذ اتجاه الحرية في الفعل والعمل والتعبير عن رغباته (تحقيق ذاته) أو أن يسعى إلى ضبط الذات (عن طريق تدخل الحكم) وهنا يكون التوجه نحو الصيرورة وإما أن يوجه فعله نحو الفعالية والإنتاج (خيار العقل). إزاء هذه الإشكاليات الوجودية يتبنى الناس حلولاً وأفضليات، وهذه الحلول تستند غالباً إلى قيم سائدة مهنية تحدد دورها جوهر العقلية.

وغالباً ما تأخذ هذه الإشكالية صداره القضايا التي يطرحها الفكر الإنساني بصيغه المختلفة. لقد طرحت هذه القضية نفسها في الفكر الديني المسيحي والإسلامي ومختلف الأديان الأخرى على صورة هل الإنسان مخير أو مسيّر؟ وكان بعض المدارس الفكرية في داخل الدين الواحد

أن تقدم إجابات مختلفة تتدرج من أقصى السلب إلى أقصى الإيجاب. فالأشاعرة في الفكر الإسلامي في العصر الوسيط أقرّوا بأن الإنسان مسير وليس مخيراً وأن ما يجري بقدرة الله سبحانه وتعالى وهم وبالتالي يعتمدون أطراً فلسفية ومنهجاً يبرر رأيهم. وعلى خلاف الأشاعرة كان المعتزلة يقرّون بأهمية الإرادة والحرية والمسؤولية في السلوك الإنساني. وبغض النظر عن الأبعاد السياسية والمذهبية فإن الفكر الديني بعامة يعطي للقدر أهمية أكبر من الحرية الإنسانية في تصریف شؤون الوجود على مبدأ ما يذهب إليه الشافعي رضي الله عنه في قوله:

"دع الأيام تفعل ما تشاء وطب نفساً بما حكم القضاء"

وال مهم في مبحثنا هذا أن الموقف من دور الإنسان في الوجود ومسؤوليته يرسم ملامح الذهنية ويددها في مساحة هامة من وجودها. وعندما توسم ذهنية على فكرة القدر المطلق فإن كثيراً من أنماط السلوك السلبية تترسم حول هذا المبدأ واليقين مثل التواكل وغياب الإحساس بالمسؤولية والسلبية إزاء مقومات الوجود وغياب مبدأ الإبداع والإبتكار، وهذا ما تتصف به العقليات التقليدية بصورة عامة.

وعلى خلاف ذلك عندما يأخذ المرء بموقف حرية الإنسان ومسؤوليته في الكون وأن الإنسان يحمل مسؤولية الاختيار فإن ذلك يؤسس للمبادهة والإبداع والمسؤولية والميل إلى المواجهة والمجابهة والمشاركة في صنع الحدث والحياة.

وتعود هذه الإشكالية من كبريات الإشكاليات الحضارية التي تواجه المجتمعات التقليدية التي تميل إلى التواكل والاستسلام والقدرة. فالعقلية التقليدية تقوم غالباً على أساس المبدأ القردي الذي لا يقر بحرية الإنسان ودوره، وهنا تكمن إشكالية التخلف الكبير الذي تعانيه هذه المجتمعات.

وليس خفيّاً على العارفين اليوم أن النهضة الغربية قامت في الأصل على منطق مسؤولية الإنسان ودروه التاريخي في الوجود. فالبروتستانتية كحركة فكرية دينية استطاعت أن تحدث

النحويب العدد الثاني والعشرون . كانون الأول / ديسمبر 2001

ثورة في الأمزجة وفي العقليات على أساس الحرية والمسؤولية التي منحها الله للإنسان وعلى أساس رفض العقلية الفروسطية التي تقول بمبدأ قدرية الوجود وأن القوى الكونية العليا هي التي ترسم حدود الوجود ومعانيه.

فالبروتستانية قد أحدثت ثورة في العقلية الغربية قوامها أن الإنسان مسؤول عن معطيات الحياة في أشمل تجلياتها في السياسة والمعرفة والاقتصاد: يجب عليه أن ينمّي الثروة وأن يسهم في النهوض الاقتصادي. يجب ألا يبدد، أن يوفر، أن يشارك، أن يبدع في كل ميدان وفي كل مجال. واستطاعت هذه الحركة أن تحطم معطيات العقلية القديمة التي كانت تجعل من الإنسان ريشة في مهب الرياح العاتية. وباختصار يشكل الموقف الوجودي للإنسان من مسألة القضاء والقدر، ومن مسألة الحتمية والحرية في السلوك الإنساني، واحداً من الأبعاد الأساسية المركزية في مفهوم العقلية.

المراجع

1. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، غ. ت.
 2. ألفين توبلر، صدمة المستقبل، المتغيرات في عالم الغد، ترجمة محمد علي ناصيف، الطبعة الثانية، نهضة مصر، القاهرة، 1990.
 3. أثري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الثاني، تعریب خلیل احمد خلیل، عویدات، بيروت 1996.
 4. رجاء العتيري، في طبيعة العقل، سحر للنشر، ط 1، تونس 1999.
 5. زکی نجيب محمود، خرافۃ المیتافیریقا، مکتبۃ النہضۃ المصریۃ، القاهرۃ، 1953.
 6. سیغموند فروید، الطوطم والتابو، ترجمة بو علي ياسین، دار الحوار للنشر، اللانقیة، 1983.
 7. صموئیل هنری هووك، منطف المخلیة البشریة، بحث في الأساطیر – ترجمة صبحی حیدی، دار الحوار، اللانقیة، 1995.
 8. عاطف غیث، "علم الاجتماع" دار المعارف، القاهرة، 1962.
 9. عبد السمیع سید احمد، الترجمیة الثقافیة: فی إریک فروم، التربية المعاصرة، عدد 26، مس 10، مارس/آذار 1991، (ص 65 - 75).
 10. عبد اللطیف محمد خلیفة، ارتقاء القيم (دراسة نفسیة، عالم المعرفة، عدد 160 آبریل/نیسان، 1992).
 11. على وطفة، البنية اللامشعورية للغة عند جاك لا كان، مجلة الموقف الأدبي، عدد 303 تموز عام 1996.
 12. على وطفة، الثقافة وأرمأة القيم في الوطن العربي، مجلة المستقبل العربي، العدد 192، 1995/2، (ص 67 - 70).
 13. فؤاد اسحق الخوري، الذہنیة العربیة، العنف سید الأحكام، دار الساقی، بيروت، 1993.
 14. فوزیة دیاب، القيم والعادات الاجتماعیة، دار النہضۃ المصریۃ، القاهرۃ، 1980.
 15. مائحة محمد حامد الأفندي، المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية لتعليم المرأة، دار العلوم، الرياض، 1983، (ص 90 - 95).
 16. معن زیادة، الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، المجلد الأول، الطبعة الأولى، 1986.
 17. ملکة أبيض، الثقافة وقيم الشباب، وزارة الثقافة، دمشق، 1984.
 18. میشال تومبسون وآخرون، نظریة الثقافة، ترجمة عالم المعرفة، عدد 223، الكويت، 1997.
 19. Linton, De l'homme, Trad. Franc. Ed. De Minuit, Paris, 1968.

20. Alex Mucchiellie, Les mentalités comprehension et analyses, Les Editions E.S.F Paris, 1984.
21. Encyclopedia universalis, Paris, 1995.
22. G.Allport, structure et développement de la personnalité, Tr.Fr., Delachauz -Niesite, Paris
23. G.Bouthoul, Les mentalités, Que sais-je , P.U.F. , Paris, 1971.
24. Gilbert. Durand, les grands textes de la sociologie moderne, Bordas, Paris, 1969.
25. Herve Martin , Mentalités médiéval X1-XV, Nouvelles Clio. P.U.F., Paris, 1996.
26. J.Copin, Genèse de l'histoire des mentalités, Sciences Humaines, N4, Juin- Juillet, 1989- pp 12- 16.
27. Jean-Claud Filloux, La personnalité, P.U.F., Onzième corrigée, Paris, Que sais-je, NO 756. Paris, 1986.
28. Larousse, grand Larousse encyclopédique, 11 vol, Paris, 1960-1968.
29. Levy Bruhl, La mentalité primitive, C.E.P.L., Paris. 1976.
30. Levy Bruhl. Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures, Paris. 1910.
31. Linton R. Le fondement culturel de la personnalité, Tra. Alyotard, DUMOND, Paris, 1959.
32. Louis Dumont, Civilisation indienne et nous, Paris, 1975.
33. M.Dufrenne, La personnalité de base, P.U.F., Paris, 1972.
34. Madeleine Grawitz, Lexiques des sciences sociales. Dalloz. Paris, 1983.
35. Mucchielli. A., Les mentalités. Que sais-je, P.U.F., Paris, 1984.
36. Regardez, Herve Martin, Mentalités médiéval X1-XV, Nouvelles Clio. P.U.F., Paris, 1996,
37. S. Betremieux, Les mentalités populaires, Sciences humaines, N4, Juin- Juillet, 1989.
38. Servier J., L'ideologie , P.U.F., Paris 1982.
39. Weber Max, L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme, Trd.de l'ALL, Presses-Poket, Coll.Agora, Paris, 1985.